الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

روافد للنشر والتوزيع

سيّد الوكيل

نوفيللا..

شارع بسادة

«حيث رأى الناس مهرةً بيضاء تعدو، ومسّهم سحرُ عينيها الجميلتين،
فسكنتهم فتنةٌ وضلال».

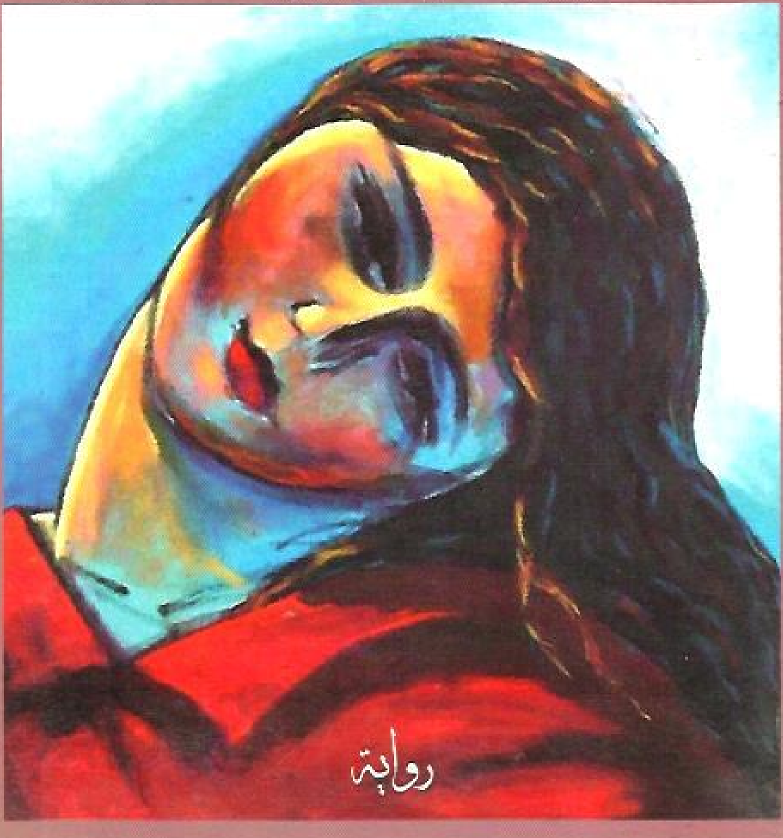

fb/mashro3pdf

نوفيللا..

شارع بسادة

(حيث رأى الناس مهرةً بيضاء تعدو،
ومسّهم سحرُ عينيها الجميلتين، فسكنتهم فتنةٌ وضلال).

سيد الوكيل

fb/mashro3pdf

رُوُفد

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0174-6

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

روافد

11 شارع أحمد لطفي السيد - غمرة - القاهرة (ج م ع)
هاتف: 26742730 202+ - 0122235071 2+
البريد الإلكتروني: info@rwafead. com - rwafead@gmail. com
الموقع على شبكة الإنترنت: www. rwafead. com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp. com. lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www. asp. com. lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

fb/mashro3pdf

نوفيللا..

شارع بسادة

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

"ها أنا أرسل إليكم
أنبياء وحكماء وكتبة،
فمنهم تقتلون وتصلبون،
ومنهم تجلدون في مجامعكم،
وتطردون من مدينة إلي مدينة".

الإصحاح الثالث والعشرون. ق.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

المحتويات

الغُرباء الذين يعرفون طريقهم جيدًا؛ حتى في الظلام.................... 9

الولد الذي يرسم الوجوه في حجرة مهجورة، كان مرصودًا للعشق، وممسوساً بالجمال. 16

الشيطان.. الذي كان كامناً لعليّ و"مَارْسا" تحت السرير 20

العِفريت الذي طارد امرأة تطقطق النار لما تراها.................... 23

الثعالب وكيف تخدع الطيور الساذجة حتى لَتظنُّه ميّتاً.................... 25

الغانية العجوز التي صارت عَرّافة لعشاقها القدامى، فيدفعون لها لقاء حكايات قديمة تخبئها دوماً في فنجانها.................... 29

ما أحدثه الله من تعديلات مفاجئة، يمكن احتواؤها في نفق صغير 34

عندما أمسك الشيطان بيد عليّ، ووضعها على ثدي "مَارْسَا" الذي فوق القلب.. 39

زوج أرانب يتناسلان تحت سرير الغانية العجوز ليلاً، ويرعيان في الحلفاء نهاراً 44

خاتم فضي كبير، وعصا لها كعب نحاسي يلمع في الشمس.................... 48

الشيطان.. الذي انتهز الفرصة ووقف يرسم صورته بنفسه فجعلها بعينين ليكذب كلام البشر 52

الملاك الذي صار شاباً، وجلس يبكي على باب حمام المرأة التي تحولت إلى مهرة 56

fb/mashro3pdf

الأعمى.. الذي أدرك صهيل البنت؛ فاحتواها من أجل قذفة أخيرة................65

المرأة التي عرت فخذيها للشمس، وتركت [illegible] تتقافز، وتنقر شيئًا بينهما 68

الولي الذي بدّل جسد البنت بولد، ونسيّ أن يبدل روحها فتسبب في عذابهما معاً 74

العفريت يزور مارسا في دير السبع بنات، ويمنحها رعشة أخيرة.
ونهاية مفتوحة لرجل يكره جسده وتُوحشه روحه، وملاك آخر يعصي الله ويغوي البشر 80

fb/mashro3pdf

الغُرباء
الذين يعرفون طريقهم جيدًا؛
حتى في الظلام

نحـــن في مساء الجمعة، في تمام الثامنة والنصف، بالتحديد في تلك اللحظـــة الـــتي يصدّق فيها الشيخ عبد الباسط؛ سنسمع بضع دقات لساعة الجامعة، ثم يعلن المذيع موعد نشرة الأخبار.

في نفـــس اللحظـــة تتـــثاءب الجدة. ربما تكون قد نعست فعلاً، وخطفـــت حُلمًا أو حُلمين قبل بضع آيات. فقد حصلت على جرعة روحانية تمكّنها من الحلم بالملاك الذي يقبلها وهى نائمة.

ذلـــك الجـــبان، الـــذي كلمـــا أحس بها تفتح عينيها؛ يطير مـــن نافـــذتها المفـــتوحة أو يخـــتبيء في مكان لاتصل إليه عيناها المتعبتان.

تعـــرف أنه كان هنا؛ لهذا ستغمض عينيها بعض الوقت؛ لتمنحه فرصـــة الظهـــور، ثم تفتحهما فجأة. تلك حيلتها القديمة التي لا تنطلي علـــي ملاك شاب، لكنه - عادة - يترك لها شيئاً من أثره: نفحة عطر في إحـــدى الزوايا، بقعة ضوء على جدار، أو ريشة يضعها - عادة - علـــى سريرها، تحت النافذة تماماً، النافذة التي تطل منها؛ لتري في أي هيـــئة **هو** اختبأ، فلا يكون في مدى رؤيتها شيء غير أشجار الكافور التي تحيط بسور البيت المقابل. وبعض عصافير نائمة تتسلي بهسهسات خافتة، فقط.. ليمر الليل في سلام.

fb/mashro3pdf

في تلــك اللحظة سيكون كل شيء في نفق المحطة مُعدًّا لاستقبال الغرباء الذين وصلوا للتوِّ في قطار هو الأخير. وسيقف حصان بُنّي بغُرّة بيضاء في انتظار رجل يقول له الناس: يا حاج وهدان.

سيكون الحاج وهدان، هو آخر الغرباء الذين سيصلون الليلة.

علـــى أيـــة حـــال.. الغرباء يعرفون طريقهم - جيداً - حتي في الظــلام، ينــزلون بضع درجات من الجرانيت الوردي، بضع درجات فقــط ويــصبحون في قلـــب الـــنفق تمامًا. سيتجهون لليمين فرادى؛ ليخـــرجوا، فقط إلى اليمين، فليس في اليسار سوى خلاء يسكنه الذين دهـــسهم القطار يوماً. بعضهم فرّ إلي خلاء آخر، وبعضهم عاشوا فيه يعابـــثون المـــارة في الليل، أو يتآمرون علي سرقة بندقية حارس المحطة الـــسمين، وفي النهار يحدفون القطار بالطوب كلما صفّر وأيقظهم من قيلولـــتهم. لهـــذا اعتادت القطارات أن تدخل المحطة، وتخرج منها في صمت.

في العادة، يكون النفق مضاءً بمصباح وحيد.

وحـــيد وخافت أيضاً، مخنوق بالتراب والهباب وشخاخ الذباب، هكـــذا. لا أحد من الغرباء يلتفت إليه، لكنهم - الليلة - سيرون شيئاً مخـــتلفاً يجعلهم يتذكرونه لبضع رحلات، حطباً مشتعلاً في قلب النفق يضيئه بقوة ودفء. عندئذ سينظرون إلى المصباح، ويجدونه مطفئاً تماماً.

في نهاية النفق سنرى العربجية بحناطيرهم متأهبين لاستقبال الغرباء، ويمكـــن أن نـــشم رائحة قديمة لروث وبول معتق. وربما نسمع نفرةَ لحصان هيّج التبنُ منخاريْه، تعقبها شخللة لأجراس صغيرة، وربما نسمع حمحمات مكتومة.

الليلة، ولظروف استثنائية، سيدخلون النفق فعلاً، ويبقون قريبين جداً من النار.

fb/mashro3pdf

العـــربجية مدربون جيداً على التقاط دبيب القطار. فلن يخدعهم دخوله أو خروجه في صمت. يتحركون في النفق وحوله، عيونهم على ســـلم الجرانيت الوردي في انتظار الزبائن تهل، يرفعون أجولة التبن من أمـــام الجياد ويلقون بها فوق العريشة، والجياد نفسها ستلتهم في عجالة حفـــنة أو حفنـــتين قبل الرحيل، وربما.. تضرب الأرض بحوافرها على سبيل الاحتجاج.

بعد قليل سيخلو النفق تماماً. الغرباء العائدون سيركبون الحناطير، والفقـــراء سيمـــشون على أرجلهم طبعاً. العربجية يعرفون أنه القطار الأخير؛ لهذا لا يفكرون في العودة إلى النفق مرة أخرى. هذه نهاية يوم عمل بدأ مع نجمة الصباح.

أمـــا العربجي رجب، فسيبقي قليلاً في انتظار رجلٍ لم يظهر بعد؛ مع أنّ رجب جاء خصيصاً من أجله. سيغفو قليلاً فوق عريشته، وسيحلم – غالبا – بوجبة عشاء دسمة ومضاجعة خرافية تعوض خيباته السابقة.

عادة.. عندما يخلو النفق تماماً، يعطي ذلك الفرصة للذين دهسهم القطار يوماً أن يتجولوا بين أرصفة المحطة. يتآمرون كالمعتاد علي سرقة بندقـــية حارسها السمين أو العبث بأذرع التحويل في حجرة المحولجي، ربمـــا يخرج القطار عن مساره المعتاد، ويذهب إلى مكان بعيد لا يعود منه أبداً.

نفق الغرباء مشهد يتكرر كل مرة بتعديلات بسيطة. لا غرابة في ذلـــك فهم غرباء هذه البلدة، الذين عاشوا فيها، أو الذين يتركونها يوم الخميس إلى قراهم وبلادهم، ويعودون إليها عندما تنام الجدة بعد بضع آيات، أو عندما يعلن المذيع موعد نشرة الأخبار.

هذا موظف السجل المدني. ستتعرفون عليه بسهولة. بدين، أصلع، لـــه بـــنطال واســـع يتدلى حزامه تحت كرشه؛ فيترك براحا لخصيتين

fb/mashro3pdf

مصابتين بالدوالي، مبتسم بلا سبب، لا يكف عن الابتسام حتى لهؤلاء الـــذين يعرف أهم يضحكون من مشيته، أو الأطفال الذين سيجهرون باسمه الحركي "أبو قليطة" في غفلة من الكبار الذين يحترمونه بالرغم من مخاوفهم أن تنخدع النساء بالذي بين فخذيه يتدلى.

سيبتـــسم، وربما يُحيّيهم بإيماءة، ثم يمضي مثقلاً بخصيتين كبيرتين بـــين فخذيه، وحقيبة صغيرة يعلقها في كتفه دائماً، بها أقلام "باسْطْ" مسنونة جيداً وبدرجات متفاوتة، تفيده في كتابة بطاقات الهوية.

الناس – عادة – تضع في درج مكتبه شلنًا أو بريزة تقديراً لخطه الجميل. وربما يعملون خاطراً لذلك الذي بين فخذيه.

مديـــر بنك ناصر سيراه الناس في شوارع البلدة كلما مروا هنا أو هناك. يتلفت يميناً ويساراً كأنما يبحث عن شيء ضاع منه. يضع نظارة ســـوداء علي عينيه – حتى في الليل – فلا أحد يدري لأي جهة يبصّ، لكـــن سكرتيرته في البنك، تعرف جيداً أن نظراته تتجه دائماً لأسفل. من أجل هذا تنـــزع الشعر عن ساقيها في الأسبوع مرتين.

مـــدرب فـــريق مـــصنع الغزل الذي كان لاعباً في نادي طنطا، وتصادف أن أحرز هدفاً في عادل هيكل؛ فدخل التاريخ من غير قصد، خرج فريقه خسرانَ بستة أهداف. أما هو؛ فاز بصورة في جريدة المساء اعتبرت سبقاً صحفياً؛ لأن المصور سجل لحظة نادرة: عادل هيكل يطير في الهـــواء، والكـــرة تدخل المرمى، ومن وراء الشبكة ثمة نقاط بيضاء وسوداء كثيرة. كانت تلك جماهير ستاد طنطا تهلّل لحظة دخول الهدف الوحيد لهم، هكذا.. جمعت الصورة كل شيء إلا الذي شاط الكرة.

هـــو لا يظهر في الصورة. فقط.. قدم مكمورة في حذاء رياضي، مجـــرد قدم لا أكثر، لكنه قص الصورة بعناية وشالها في محفظته، وكلما جاءت مناسبة يخرجها.

fb/mashro3pdf

هو - في الحقيقة - لا يخرجها من محفظته، ولا يعرضها علي أحد إلا نادرا، إذ كان عليه في كل مرة أن يقول بحسرة:

- أنا الذي شاط الكرة. والله أنا.. بص.. دي رجلي.

ثم من هذا؟!

آه.. شيخ المعهد الأزهري في البلدة، المنتدب - أصلاً - من المعهد الأحمدي بطنطا.

الحقيقة هو لا يعود لقضاء العطلة الأسبوعية بين أهله سوى مرة واحدة كل أول شهر، وتصادف أنه أمضي أسبوعاً كاملاً بين أهله. ها هو ينهي أجازته؛ ليعود في القطار الأخير، لأن عليه أن يكون في صباح السبت بين الشيوخ الأطفال؛ ليذوب بينهم.

هو نفسه يشبه الأطفال تماماً.

قصير جداً،

ونحيف جداً،

وخفيض الصوت جداً جداً.

وهو فوق ذلك خجول، حتى لا يقوى على النظر في عيون تلاميذه.

هذه صفات لا يمكن أن تجتمع في شيخ أزهري إلا هو؛ لهذا فإن أحداً لا يشعر بوجوده، لا بسفره ولا بعودته، حتى أن العربجية المتحفزين لزبائنهم يخطئون وجوده عادة. ربما يفاجأ به أحدهم وهو يهم بالانصراف بعد أن يئس من الفوز بزبون، وغالباً لن يهتم به، فالشيخ الصغير لا يركب الحناطير إلا نادراً، وعادة يكون آخر الخارجين من النفق، يمشي بخطوات متعثرة ملاصقاً للبيوت والأرصفة. ينظر للأرض كأنما يبحث عن ظله، يصل إلي بيته المجاور للمعهد الأزهري بعد عشرين دقيقة من المشي بحساب خطواته الصغيرة، غير أنه

fb/mashro3pdf

في ليلة مثل هذه، سيفكر بالتأكيد في ركوب حنطور، إنها ليلة باردة، والطرق موحلة، وهو حريص علي ألا يوسّخ ذيل "كاكولته" التي يبقى فيها لشهر كامل قبل أن يعود في أجازة أخرى.

دعونا لا ننشغل به، فهو ليس الرجل الذي ينتظره رجب.

على أية حال، فهذا الشيخ الصغير سيختفي من الوجود تماماً بعد أيام قليلة من تلك الليلة. سيكون رجلنا الذي ينتظره رجب هو الأكثر غربة بين كائنات النفق هذا. سيكون غريباً حتى عن جسده واسمه. أما شيخنا الصغير، فسوف يختفي تماماً. هو - في الحقيقة - كان مهيّئاً للاختفاء. سيحدث هذا بعدما اتهمته صاحبة البيت بالتحرش بابنتها القاصر. طبعاً فضيحة. كان يحتاج لفضيحة حتى يشعر الناس به. فضيحة ستجعله حديث الناس لبضعة أيام وكأنهم فوجئوا بوجوده بينهم. سيختفي تماماً، لكن الناس ستذكره كثيراً، كلما مرت في شوارعهم بنت بعيون شقية ونَهديْن لَعوبين، لا بد أتعبا الشيخ الصغير كثيراً حتى يمسك بهما.

هذا القطار كان دائماً يأتي بغرباء هذه البلدة.

ذات مرة جاء بولد في الثانية عشرة، بدين وخجول، يرتدي "شورت" قصيراً وصندلاً، ممسكًا بحقيبة من الورق المقوى، جاء بصحبة امرأة جميلة تشبه هدى سلطان.

المصادفات تلعب دوراً كبيراً في حياة الغرباء. ففي العربة الأخيرة من نفس القطار الذي جاء فيه الولد الخجول وأمه، جلس رجل وبجواره طفلة خمرية ونحيلة، بفستان منقوش وقصير وشعر كخواتم نحاسية.

سيركب الولد الخجول وأمه الجميلة حنطوراً، وستركب البنت النحيلة وأبوها حنطوراً آخر، وستلعب المصادفة دوراً جديداً عندما يلتقي الحنطوران في شارع واحد يقال له: شارع بسادة.

fb/mashro3pdf

سيكون أحدهما قد أفرغ حمولته بالفعل، وراح يستدير؛ ليعود إلي المحطة، وأثناء ذلك يلتقي الحنطوران؛ فيصهل جواد أحدهما على فرسة الآخـــر، لكن الولد الخجول لن يري البنت النحيلة إلا بعد بضعة أيام؛ وهما في طريق المدرسة.

ساعتها سيعرف أن البنت التي أشعلت خياله اسمها زينب سليمان، وأن لامبرر لوجودها - أصلاً - إلا لتشعل خياله.

إنها غريبة مثله، تعيش مع جدتها فلا يُسمع لهما حس. وستعرف هـــي أن وروده وأغانيه التي يدسها في حقيبتها المدرسية، ليست سوى دلـــيل علـــى حب مستحيل، أما الشيء الذي لن يعرفاه أبداً، أن كل منهما جاء في نفس القطار. فليس ثمة شاهد علي هذا سوى حصان بنّي له غرة بيضاء بين عينيه. صاحبه لم يطلق عليه اسماً، *لكنه اعتاد يقول له: يا نجس.*

كـــم سنة عاشها هذا الحصان ليكون شاهداً علي ليلتنا تلك؟ أو لـــيقف هكـــذا بجوار النار في انتظار غريب، يقول له الناس: يا حاج وهدان.

fb/mashro3pdf

الولد الذي يرسم الوجوه في حجرة مهجورة، كان مرصودًا للعشق، وممسوساً بالجمال.

الـــولد الذي جاء بصحبة أمه، بدينًا وخجولاً كان، بحقيبة صغيرة من الورق المقوّى، تكفي لاحتواء أشيائه كلها، فهو بسيط جداً حتى أنه لا يطلـــب من الدنيا شيئاً، سوى أن يبقى في حضن أمه وقتاً آخر، أن تقبّله من شفتيْه الممتلئتين قبل أن تلقي وصاياها:

علـــيك أن تأكـــل جيداً، وتذاكر دروسك أولاً بأول، أن تسمع كلام الجدة ولا تتعبها.

في العـــيد سوف تأتي لزيارته، وتسعده بحذاء جديد، وبنطال طويل كما يرغب، وصندوق الحذاء سوف تُهيِّئه لتضع فيه الكعك الذي يحبه.

ذات صـــباح استيقظ، فوجد نفسه وحيداً مع جدته. بكى نهاراً كـــاملاً. كان يعرف ما للمسافات البعيدة من قسوة. غير أنه كان من الحـــيطة بحـــيث احتفظ بعالمه داخله؛ فرسم شوارع، وبنى بيوتاً وجعل ناساً يسكنونها.

صعد سلماً خشبياً، ووجد فوق سطح البيت حجرة وفرناً وأشياء أخرى لا يعرف من أتي بها هنا. أخيراً جلس، وكتب رسالته الأولى إلى أمه.

قال لها: لا تنسيْ مجلاتي، وألبوم صُوري الذي تحت المرتبة.

fb/mashro3pdf

كــان بريئاً؛ فصدّق أنها ستزوره في العيد كما قالت. كان بريئاً؛ فلــم يصدق أنها ستنساه لسبع سنين، بعدها عادت؛ فرأته شابّاً غريباً، وفي صــوته شــجن؛ فأدركــت أن البنطال الذي اشترته لم يعد على مقاسه.

أمــا هو فكان قد رسم صورتها في خياله، ثم ثبَّتها جيداً، حتى لا يغيرها الزمن. سيظل يذكر أن فستانها كان أخضرَ، والحزامَ الأحمرَ كان مــشدوداً على خصرها النحيل، ووردةً حمراءَ - أيضاً - علي صدرها تتفــتّح في كــل يوم ورقة، وحين تنحني؛ لتقبّله؛ فإن شعرها الأسود المضمَّخَ بزيت الياسَمين ينــزلق عن كتفيها؛ ليلامس وردتها.

قــال أيضاً في رسالته الأخيرة: أتمني لو تموت الجَدّة، فرائحة فمها نتنةٌ، وأصابعها الناشفة لا تتوقف عن اللعب بشعري، وحين تأخذني في حضنها، أشم رائحة العجين الحامض.

كتب الولد رسالته الأخيرة وبلَّلها بدموعه، ربما يحنن قلب أمه.

هدَّه الشوق؛ فدخل عالمه، ونام.

كلما هده الشوق، نام، وحلم بشوارع وبيوت وناس يسكنونها.

(يَحسُنُ للأولاد في سنِّكَ أن يصادقوا أحدًا. أنت والله غريب، لا تــبقَ محدِّقاً هكذا في صورك التي ترسمها في حجرة الخبيز، ثم أنها حجرة مهجورة، وربما محويّة يسكن فيها شيطان).

خــاف الولد من الصوت الذي حادثه. تلفّت يميناً ويساراً. لم ير أحــداً. كان الصوت هادئاً وحنوناً، شبيها بصوت أمه، غير أن الولد كان خائفا فعلا - حتى إنه ارتعد وتفصَّد عرقاً، وسمع كطنين النحل في أذنيه - جرى إلي جدته، وارتمي في حضنها؛ فوضعت يدها على رأسه، وقــرأت في ســرِّها شيئًا حتى تثاءبت، وفي تلك اللحظة؛ لمحت الملاك الذي يقبّلها، وهي نائمة، يفر من الشباك؛ فأدركت أنه جاء هذه المرة

fb/mashro3pdf

مـــن أجل الولد. وربما سيصير صديقا له، فقالت في سرها: يا لك من ملاك عيّل.

هذا الولد صادق الملاك فعلاً، وساعده على ترتيب حجرة الخبز؛ فهيأها له على قد خياله، ثم أوقد في سقفها الشموس والأقمار، وأوحى لـــه أن احفُر الوجوهَ على حوائط الطين، وحادثْها؛ فإذا أُعجبَ بها الله سيمنحها أرواحاً ملونة.

رسم الولد وجه أمه. جعله جميلاً كما يظن، ووضع بجانبِ فمها "حسنةً". هزّ الملاك رأسه وقال: إنها ليست كذلك.

قال الولد: ولكني أحبها كذلك.

فقال الملاك: ولكنك لا تحبها بما يكفي؛ لتصير حقيقةً.

بكي الولد، حتى أبكي الملاك معه.

الجدة تقول: إني أشبه أمي.. أنكر الجميل مثلها، وأعضُّ اليد التي تطعمـــني، وهـــى التي أخبرتني يوماً أن دودة نجسة في فرْج أمي تلتهم الـــرجال. هـــذه الدودة هى التي قتلت أبـــي. مصَّتْه، حتى جف على عوده.

قالت: انْسَ أُمَّكَ.. اعتبِرْها ماتت.

أمـــي تجلس على ركبتيها؛ لينحسر الفستان قليلاً، وتبقي وجهها الجميل قريباً من وجهي.

– عندما تكبَر ستعرف. فقط لا تنس أنك ابني. ابني أنا. انظر.

عـــندئذ تـــرفع حريرها. سيفوح عطر، وتطير فراشات، وتسطع شموس، تَبْرُقُ لآلئُ صغيرةٌ تخطف الأبصار، ويسمع خريراً بعيداً وغناءً.

– هذا جرح بعرض البطن. جاء إثر ولادة قيصرية، والرجل الذي رأيته في سريري أحبني، كما أحبني أبوك وأكثر.

أنظرُ فأجد إخوة كثيرين لا أعرفهم.

fb/mashro3pdf

الولد الخجول أصبح الآن رجلاً؛ فقدر على مواجهة الموت. دخل المغسلة، وأشرف بنفسه على وضع اللمسات الأخيرة في لوحته الأولى، وعندما انتهى، تحسس بأصابعه جُرحاً طويلاً بعرض البطن؛ فوجده ما زال ملتهباً وناتئاً.

في الجنازة سيصافح امرأة خمريةً ونحيلةً. سيذكّرها بأيام المدرسة ودروس الحصص الخصوصية، ورحلة القناطر في شم النسيم، وورود وأغانٍ دسَّها في حقيبتها المدرسية، لكنه لن يكاشفها بلحظات اشتهائه الأولى لها. فيما بعد سيتعلم كيف يكتب ذلك على الورق، غير أنه لم يحدث أن قرأته ولو لمرة واحدة. وكأنها، كانت موجودة - فقط - لتشعل خياله.

الولد الذي جاء بصحبة أمه، بدينًا وخجولاً كان، حتى إنه لا يقدر على رفع عينيه في الأولاد كلما راح أو جاء، وحقيبة كتبه تتأرجح على كتفه الصغير بحمل ثقيل. الأولاد الذين كلما رأوه، جروا خلفه يهتفون بحماس كأنهم يحرِّرون أنفسهم من الموت: ابن الحلوة أَهُهْ.

الولد الذي أصبح رجلاً، لا يدري كيف فقد ألبوم صوره الأولى؟.

كانت صوراً رسمها بنفسه لناس طيبين تملأ البراءة قلوبهم، لولا أن الشيطان كان "يوزّهم"؛ فيمشون في مُدنه؛ ويتسكعون في شوارعها بحثاً عن غواية، فراح يمشي معهم في الطرقات والشوارع القديمة. يبحث عن وجه يعرفه، أو جمال قديم في وجه امرأة مرت به.

كان مرصوداً للعشق، وممسوساً بالجمال.

فمن يحرِّر نفسه من الجمال؟.

fb/mashro3pdf

الشيطان..
الذي كان كامناً لعليّ و"مَارْسا"
تحت السرير

كانـــت مدرستُنا في آخر حدود المدينة، وكنا نحب "أبْلَةْ ذكية"، ونكره الأستاذ رزق الله. كنا أصغر من أن ندرك أن الثعالب حيواناتٌ ماكرة هكذا؛ فنهرب من حصة الأستاذ رزق الله، ولا نعود للبيت إلا متأخرين. نمشي حتى البراري. هناك بعيداً في أرض أبـــي خليفة. هناك لن يرانا أحد في أرض تغطيها الحلفاء.

الملائكة - طبعاً - ستبقى في المدرسة ترافق الذين يخافون الأستاذ رزق الله، وتنفخ في كفوفهم الصغيرة بعد كل عصا، وقد تميل على أذن الواحد منهم، وتُسِرُّ له إجابةً كانت بعيدة.

أمـــا الـــشيطان فهـــو الـــذي يدلـــنا على جحور الثعالب الـــصغيرة. حـــيث خـــرجت أمهاتهم للسوق. حينئذ نطرق أبوابها ونقول:

- نحن أمهاتكم يا صغار؛ فاخرجوا ولا تخشوا شيئاً.

الشيطان هذا هو الذي نبهنا - بعد ذلك - إلى أن الشمس مثيرة كزينب سليمان. وحين قبس منها، ومرّرها في أصلابنا؛ نبت في عاناتنا شَـــعر، ثم دفع في جيب أحدنا صوراً لنساء ورجال عرايا وفي أوضاع يخجل الواحد من وصفها، قال:

- مـــن منكم يملك عضواً أكبر؟. من منكم أكثر مَنِيّاً من أخيه؟.

fb/mashro3pdf

اخلعوا سراويلَكم يا صغاري. اخلعوها، ولا تخافوا الملائكة؛ فهي اليوم مشغولة عنكم.

الشيطان هذا كان كامناً لعلي ومارسا تحت السرير. وهو الذي قـــال لناشـــد على كل شيء، ودلّهُ على سر جرح في شفة عليّ، والخـــدوش الطـــويلة في ظهـــره، وشرب معه ثلاث زجاجات عند شـــنودة، وشـــنودة أيضاً شرب معهما، وكان في الحقيقة مندهشاً. فناشـــد لا يشرب نهاراً، والشيطان أصغر كثيراً من أن يشرب كل هذا.

قال الشيطان، وهو واقف يتطوح: سيكون هناك دم.

الشياطين يا جدة لا تحفظ الأسرار؛ فليست لها آبار عميقة، وهي الـــتي ترسل الريح في ذيل فستان زينب القصير أصلاً، وتفر صفحات كـــتاب الجغرافيا؛ فلا تفهم زينب منها شيئاً، وتوسوس لجدتها في تلك الـــساعة، أن اذهبـــي يا زينب لأم علي، واطلبـــي منها غربالاً ضيق الثقوب لا تنفذ منه ولا حتى العفاريت. وهو الذي أشعل الفرن فجراً، وبثَّ في جسد زينب صهدًا لذيذًا، وهمس في أذنها:

- دعي أصابع علي تتسلل تحت فستانك.

هكـــذا تمسُّ النار فخذيْها مسّاً رقيقًا ومرتعشًا، فلا تقول زينب شيئاً، فقط تغمض عينيها وتختلج لما تصعد النار إلى شفتيها. ومن يومها صارت، تشعل القلوب كلما مرت.

هل أخرسْتَها يا أيها الشيطان؟

أم تلـــك رائحـــة سعف النخيل الطري، عطناً وفواحاً بأنفاسك ياعلي، حتى لتحسُّها زينب حارة وذكورية؟!.

الشيطان هذا شاطر وابن وسخة. ظل يضحك طوال اليوم، فيما كانت الملائكة في انتظار زينب تطلع السلم، وتطوف على حواف سور

fb/mashro3pdf

سـطح البيت؛ لتمسك بها في اللحظة الأخيرة، قبل أن تطير في الهواء. كانت خفيفة كريشة في جناح.

قالـت الجـدة للـولد الخجول: أنت دائما تتخيل الحكايات، وتصدقها. كبرت الآن، وخطّ لك شنب فلا تكذب، الشياطين لا تفعل كـل هـذا. الشياطين توسوس فقط. وعلي ولد طيب يمشي سرحان ورخياً، فلا تَحْكِ للناس هذه الأكاذيب.

fb/mashro3pdf

العفريت
الذي طارد امرأة تطقطق النار
لما تراها

لكـــي ســأحكي لكم عن بنت اسمها "مارْسا" بضفيرة واحدة، وعينيْن بنفسجيّتيْن، يفاجئها الحيض، وهي على دكة المدرسة. تجلس، والبـنات يـنطلقن في أعقاب رواحها دون أن يلمسن رخاوتها. هذه البنت صارت امرأة تطقطق النار لما تراها.

ذات يـوم، ذهـبت إلى دكان زوجها، تحمل في يدها سلة أكل وفاكهة قليلة.

مارســا زوجة طيبة ترتبك كلما رأت رجلا وتحمرُّ وجنتاها، غير أنها في ذلك اليوم رأت عِفريتَها للمرة الأولى، فظل يطاردها خمسين شهرًا قمريًّا، وتروغ منه في حدائق روحها، حتى إذا فاجأها يوماً على سـلم البـيت؛ كان القمر في اكتماله، ويسقط ضوءاً رائقًا من فتحة صغيرة في جدار.

مـساحة مـن الضوء تكفي؛ ليتألق بنفسج العينين، لما رأت ظله يلامس ظلها، ثم يحجب كلٌّ منهما الآخر.

لحظـة كـتلك التي أسميتُها لحظة الصمت المباغت، صمت يليق بإنصات دقيق؛ لتسمع غناءً وحشيّاً وسحيقاً.

في لحظـة كهـذه تراخت وقالت: ادْخُلْني يا علي؛ فدخلها غير هيَّاب، ولا مقتحِم، دخولاً هيناً يليق بابنة العشرين.

fb/mashro3pdf

ولما يزيد عن عشرين أخرى، ظلت ترقب اكتمال القمر فوق صحن الدير الذي حَبستْ فيه جسدَها؛ ليدخلها في أول الليل، ويغادرها في الصباح بعد أن يشعل شمسها، حتى خافت يوماً ألاّ يعود؛ فأحكمت سدادتها عليه، واحتفظت له بمرة أخيرة تأتيها مفاجئة كالموت فلا يمكنها أن تقاوم.

هل كانت تحتاج لمؤامرة من نوع كوني تبدأ بتوقف دورة القمر؛ لتخرج عفريتها لمرة أخيرة؟

ثم ترقب من فتحة جدارها اكتمال القمر، وتتخيل أنها في ركن سلم بيتها القديم تقبع لعله يعود؟!.

يا للمرأة التي تنسج أسطورتها عبر دخان ونار..

كان عليها أن تغسل عن جسدها عشرين عاماً من الوجع القديم بضوء شمعة ودخان، وظلال جسد وماء، وموسيقى ذات طبول وحشية، وفتى أسمر في قاع الوادي يلوح لها من بعيد.

fb/mashro3pdf

الثعالب
وكيف تخدع الطيور الساذَجة
حتى لَتظنُّه ميّتاً

ظـــل يحفر الوجوه على حوائط الطين، ثم يتحدث إليها. بعد أن يعجـــب بها الله يمنحها أرواحاً ملوّنة، لكنه لا يمنحها مصائر أخرى غير تلك التي حفرها في لوح مسطور.

فمـــثلاً: ذلـــك الفـــتى الذي يمشي في السوق، ويصدم مؤخرته بالفلاحين في الزحام له روح سمراء ونحيلة، والفلاحون لفرط سذاجتهم يعـــتذرون لـــه، فيما يضحك الخبيرون بالسوق وحيل خولات البندر، وربمـــا يـــشيعونه ببعض السباب والبصق. يغالون في ذلك، ويلتفتون حـــولهم؛ ليتأكدوا أن أحدًا رآهم وهم يفعلون ذلك. سيبدو ذلك مجرد إعلان أنهم أبرياء وليس لهم في الوساخة.

سيتبادلون معاً ابتسامات وغمزات لها معنى، وسيتحدثون من فوق ظهـــور الحمير وهم في طريق عودتهم، وسيشعر الواحد منهم بالفخر؛ وهو يحكي كيف فهمها وهي طايرة. إنهم مجهدون، وليس لديهم رغبة في أحاديـــث طـــويلة، ومع ذلك، يمكنهم التعليق. مجرد التعليق، كأن يبصق أحدهم ويقول: رجالة آخر زمن.

لكـــن الأكثـــر شباباً منهم أو أولئك الذين لم تصبهم البلهارْسِيا بأورام البروستاتا؛ ستدق قلوبهم.

إنهم خائفون.

fb/mashro3pdf

ويتمنون لحظة، لو أن الله غفل عنهم.

غير أن الفتى المعذَّب لا يَعدَم واحداً على الأقل أفلت من عيون الملائكة، أو زاغ منهم لبعض الوقت. هو لا يفكر أن يذهب به إلى أرض أبي خليفة، فالعيال الشياطين يلعبون هناك طول النهار، وصبيان مدرسة الصنايع يعرفونه جيداً، وليس بوسعه أن يصحبه إلى المقابر كالمرة السابقة، إذ أن حارس الجبانات هناك، ذلك العجوز المقزز يعرفه جيداً، ولن يفوت تلك الفرصة، وهو مهما كان، يكره أن تمس مؤخرته يد اعتادت تجوس في جثث الموتى.

لماذا هذه الأشياء البشعة الآن يا ولد؟

إنها بشعة ومخجلة، وسوف يحاسبك الله إن ذكرتها للناس.

ولو عرف أنك سوف لا تنساها لما لوّن أرواحها.

يا الله!

هل الولد شرير هكذا، حتى ليعجز قلبه عن الخفق إلا لصور يرسمها الشيطان؟!

فتلك المرأة التي تخلع ملابسها في الشمس، وتفرد شعرها، كثيراً قالوا إنها تستقبل الغرباء؛ ليفعلوا في بيتها أشياء يخجل الواحد من ذكرها.

وفتى يسير - ويا للغرابة - في السوق بين الفلاحين، رافعاً ذيل جلبابه كاشفاً عن مؤخرته بلا خجل!

والواحد لا يعرف كيف يمكن لأشياء قبيحة أن تحيا هكذا في نفوس البشر؟!

ثم هذا الولد الذي اكتشف المكان، وفيه ضاجع صوفيا لورين، واحتفظ بصور لفتيات عاريات، وأنصاف سجائر، وأشياء أخرى كثيرة وخاصة، من يراه مستلقياً على ظهره هكذا، وعيناه للسماء، متوسداً

fb/mashro3pdf

كـــومة حطب الخبيز، يظنه موقد الشموس والأقمار، غير أنه في تلك اللحظـــة، يفكر في الثعالب، كيف تخدع الطيور الساذجة، حتى لتظنه ميتًا بالفعل، ولولا أنك رحيم جدًا يا الله؛ ما خلقت لها أجنحة.

زيـــنب ســـليمان بنت رومانسية والله، تعشق الفراشات وطيور الـــسما، خمرية ونحيلة، لها شفتان تنفرجان برخاوة دافئة كأنما تدعوك لتقبيلها في كل وقت، غير أنها رومانسية فعلاً حتى أنها لن ترى الشهوة في عـــيني الولد، وهو يرسمها عارية، وربما لا تعرف أن الثعالب ماكرة وشريرة؛ فتصعد درجات السلم الخشبـــي؛ لتحط في مكان عال فوق ســـطح بيتها، وتمشي على الحواف، تصطاد الفراشات وتطالع دروس الجغرافيا.

عندما تجيئها الريح من أماكنها السرية، وتطيِّر ذيل فستانها الواسع والقـــصير أصلاً، وتكشف كل الشموس والأقمار، يكون هذا من فعل الـــشيطان، لكـــنها بنت رومانسية والله. صحيح هي شهية، ولكن بلا وهـــج كزهـــرة قرنفل، ومباغتة بلا ارتعاش يسكن جسمها، ثم أنها لا تـــشبه صوفيا في شيء، لكن الشيطان هيأ للولد ذلك؛ حتى يعيش في الغـــواية. فنهداها طالعان بلا تفجر، وما في عينيها حزن وليس شهوة، ولو انسحبَ الآن إلى حجرته المحوية، ورأى صورتها التي علمه الشيطان كيف يرسمها؛ لتأكد له ما أقول.

الـــنهود لهـــا إيماءاتهـــا الخاصة جداً ياولد. حتى أنها لا تتشابه في الـــصورالتي تـــرسمها، وجمـــيعها تغمرك بالشهوة، فضع "الْمَنقَدَ" بين فخـــذيك، فإذا زلزلتك سعفة الوهج، تفكر طويلاً في مصير حيواناتك المنوية حين تقفز في النار.

قال الملاك وهو ينظر في وجه الولد النائم:

يا الله! لم كتبت عليَّ أن أرعى ولداً بهذا الشقاء؟!.

fb/mashro3pdf

أنـــا نفـــسي أخاف أن يرسمني بعين واحدة، أو يضع على رأسي قرنين؛ فأصير شيطاناً.

fb/mashro3pdf

الغانية العجوز
التي صارت عَرّافة لعشاقها القدامى، فيدفعون لها لقاء حكايات قديمة تخبئها دوماً في فنجانها

رسمها بقلمه الرصاص فوق ورق "البريستول" الذي اشتراه خصيصاً من مكتبة المعاهدة. امرأة ورجل يتحادثان، وفتى نحيل بساقين مكشوفتين ينام بجوارهما، جعلهما في مساحة صغيرة من الظل، تحت مظلة خيش لا أكثر. تتوه بين عشرات المظلات في السوق. إنها - في الحقيقة - مميزة بطريقة ما. فلا أحد من رجال السوق يخطئها. النسوان فقط يتجنّبْن المرور بجوارها حتى لا يطولُهن شيء من لسانها الطويل. ثم جعل خلفية المشهد غائمة، كأنه عفار تسبح فيه رؤوس حمير وبقر وبشر.

هذا يعني أن السوق الذي طلب منه مدرس الرسم أن يرسمه لا وجود له من غير سيدة آلاجا.

الملاك الذي تعرّف عليه يوم كتب رسالته الأخيرة لأمه قال: والله أنا لا أفهمك يا ولد. كيف ترسم وجهاً فيه كل هذا القبح، وتظنه جميلاً؟.

حتى النساء لا يقلن عنها إلا سيدة القحبة.

الرجل ذو الشارب الكبير الجالس يحادثها هذا، يقسم أن وجه سيدة كان أجمل من وجوه الخواجات، وأن ريقها مسكرٌ، وريحها معنبرٌ، والزمان هذا غادر وابن وسخة.

fb/mashro3pdf

- اسألوني أنا عن آلاجا.

هــذا الرجل اعتاد يجلس في خُص البوظة ساعة أو ساعتين. هناك سيسمع شيئاً من أخبار السوق، ويرى وجوها لتجار قدامى يدينون له ببعض النقود. هو لا يطالبهم بشيء. فقط يشرب معهم قرعتين أو ثلاثاً حــتى يُــذهب ما بنفسه من سأم، وإذا ما انتهى من قرعته يلعق شفتيه بلسان طويل، ويمسح شاربه ببطن كفه، يغمز بعينه ويقول: يا سلام.. حلاوة رباني بنت الكلب.

يقــف بجلــباب أزرق يحدق بنظرة طويلة من باب الخص. نظرة مــسكونة بوجــع وحنين وذكريات تطير كعصافير رمادية. يوجهها مباشرة في اتجاه مظلة الخيش التي تجلس تحتها سيدة. يمد يده في السيالة؛ فتــشخلل الــنقود قبل أن يخرجها ويمدها للواقف وراء البرميل. يجول بخاطره أن يقول بصوت عالٍ:

لا شيء يبقى على حاله.

فقــط يتجــشأ ويتحرك في اتجاه الباب. لكن لحنًا رتيبًا يتردد في نفسه بكلمات لها طعم الرثاء:

دنيا غرورة وكدّابة

زيّ السواقي القلاّبة

صوت - كهذا - يأتي رخواً وممطوطاً وخافتاً؛ فيتوه في أصوات الحمير والجمال والبقر والبشر التي تجعر في السوق.

هــي - أيــضاً - لا تــبارح مظلتها في ساحة المواشي، تمر عليها؛ فتحيطها بالعفار والبول والروث؛ حتى يعفّ عليها الذباب، فــتلعن أصــحابها واحدًا واحداً. ربما تتحرك للوراء قليلاً، تتحرك ولا تجــاوز مــساحة الظــل الــصغيرة التي تصنعها مظلة الخيش والجريد.

fb/mashro3pdf

الآن تقـــول لحـــسونة: إن يـــوم الـــسوق هـــذا يـــوم خـــير فعلاً.

فهؤلاء عشاقها القدامى، تجار المواشي الذين ضاجعوها واحداً واحـــداً، يجيـــئون من كل البلاد، يحطون رحلهم على المرفأ المهيأ للغرباء. صحيح هم الآن عجائز مثلها، لكنهم إذا جاءوا للسوق لا يـــبخلون علـــيها – أبداً – بما قُسم: هيييييه... لا شيء يبقى على حاله.

قـــد يجلـــس الواحد منهم بجوارها يرتاح في الظل قليلاً، يدخن ســـيجارته فـــيما تعد له فنجان القهوة على "منقد" لا تنطفي النار فيه أبداً، وعندما ينتهي من فنجانه يقلبه في الطبق ويقول:

- بختي يا سيدة.

- بختك من بختي يا خويا.

هـــذه عبارة تقليدية ترد بها قبل أن تمسك الفنجان، أو حتى تبصّ فيه. سيجلس صامتاً وكأن مصيره يتحدد الآن.

- حملك تقيل يا أبو العيال.

سيدفعون لقاء حكايات قديمة تخبئها دوماً في فنجانها.

يتنفس الواحد منهم بعمق؛ فتطير روائح بُنّ ودخان، وتطير أفكار وذكريات عن الأيام الخوالي.

ســـيدأون – حتماً – بشيء من التأسي، ولكن حتى الذكريات الألـــيمة ستبدو من بعيد شيئاً طريفاً وربما مضحكاً. وفي غمرة نشوتها تغني بصوتها الذي ما زال صافياً:

يا سي عنتر يا غالي.. ياللي شاغللي بالي..

قـــد تحـــتاج فقط لتغير اسم الواحد منهم لكن الأغنية ذاتها لا تـــتغير. فالأغـــاني باقية، وصالحة لكل الأسماء، وإذا دمعت عيونهم،

fb/mashro3pdf

أو اهتـــزت رأس الـــواحد مـــنهم، فإنها قد تنهي الأغنية بكلمات جنـــسية وقبـــيحة، وتفعل أشياء يخجل الإنسان من ذكرها. تغنج، وتلهث، أو تمص شفتيها. حتى يضحك أبو العيال ويلقي بحمله عن كتفيه.

وهـــذا كلـــه لا شيء. فبإمكانها أن تمد يدها بين فخذي الواحد مـــنهم. لكن حتى هذا لا يمكنه إيقاظ الحواس القديمة. فلا شيء يكون صـــوراً. فقط معان مجردة، وهواجس غامضة تسكنهم، كمزحة قديمة، تـــثير فـــيهم الضحك بقهقهات داكنة، أو تشعرهم بالألم في مواضع حساسة.

ســـيدفعون الآن بـــسخاء، ويعـــودون إلى بـــيوتهم بأكتاف خفيفة.

هـــم الآن أكثر كرماً حتى من ذي قبل، من تلك الأيام التي كانوا يدفعون فيها لقاء أشياء حية، وهذا يمنحها الفرصة أن تشتري شيئاً قبل انقـــضاء الـــسوق. عقداً من الخرز الملون، أو منديل رأس مطرزاً بخرج النجف، أو زجاجة من عطر الحبايب. بالتأكيد ستشتري حمل برسيم أو دراويـــة لأرنبين وليفين في بيتها، وربما تشتري لحسونة رغيفين وبعض الفلافل.

كالعادة سيقول حسونة:

- خيرك كتير يا سيدة.

- من عرق جبيني يا روح امك.

ضـــحكت، فبانت أسنانها الذهبية، فضحك هو أيضاً وأزاح سلة الفول السوداني في الشمس قليلاً؛ ليبقى ساخناً، ويعجب الزبائن. جلس في مساحة الظل الصغيرة بجوارها. مدد ساقيه، ورفع ذيل جلبابه قليلاً؛ فظهرت ساقان ناحلتان بعروق زرقاء نافرة.

fb/mashro3pdf

هـــي بنفسها اشترت له كيلة فول سوداني، وأخذت سلة صغيرة مـــن تاجـــر مقاطف أعجبتها طلعته، حتى إنها تمنت لو أنها لقيته وهى أصغر من هذا.

قالت له: حسونة ولد يتيم يسعي على رزقه.

فرد التاجر قرشين كانت قد دفعتهما وقال: ادعي لنا يا خالة.

تدعو له فعلاً، وكأن ملاكاً يقف خلفها يسجل ما تقول.

fb/mashro3pdf

ما أحدثه الله من تعديلات مفاجئة، يمكن احتواؤها في نفق صغير

ليس كمن يرسم على جدار أو لوحة. الولد البدين يرسم بالكلمات مشهدًا، سيجعله شيئاً ساكناً في مساحة من الزمن، وربما عالقاً هناك.

كل شيء في النفق ليس كعادته.

ضوءُ النار يرسم خيالات لجيادٍ وحناطيرَ وبشر تتراقص في دفء، وتتداخل على جدران غامت معالمها. سعلات وحمحمات وهزات رؤوس تشخلل أجراسها. التماعات لبقع مياه ومشغولات نحاس تضوي في السروج وعلى جوانب الحناطير.

إنها احتفالات العام الجديد - رغم كل شيء - تعلن الفرح.

فوق النفق مشهد آخر يتشكل في إيقاع من الوحشة. غرباء تركوا زوجاهم متدثرات ببطاطين وألحفة، يسترجعن لحظات النشوة الأخيرة. بطاطين وألحفة تحفظ روائح المضاجعات العاجلة لأطول وقت ممكن، فيما كان الرجال - في تلك اللحظة - يواجهون البرد علي رصيف المحطة بحقائب ملأى برائحة البيوت، ويدفئون أنفسهم بخطوات نشطة على سلم الجرانيت الوردي.

لم يعد أحد من الغرباء في النفق. كلهم خرجوا. ركبوا الحناطير، وهم الآن في الطريق إلي بيوتهم، النفق خال إلا من نار كفت عن الطقطقة، وبدأت تترنح، وحنطور وحيد يقف بجوارها

فوق الحنطور رجب العربجي يحاول يطرد نعاساً بهزة من رأسه تعلمها من حصانه. سيشعر قليلاً بالتوتر، ثم يثبت عينيه على سلم الجرانيت الوردي، ربما يظهر الرجل الذي ينتظره، فيناديه مثل كل الناس: يا حاج وهدان.

الآن ليس على رصيف المحطة سوى هذا الرجل. إنه متدثر في عباءة سوداء مقصّبة. يجلس على مقعد مواجه لعربة الدرجة الأولى. يدخن في صمت.

كم من الوقت مر عليه وهو يجلس هكذا؟!.

وقتٌ كاف ليشعر الذين دهسهم القطار - يوما - بالقلق، خشية أن يبقى طويلاً، فيفسد خطتهم الجديدة في سرقة بندقية الشرطي السمين الذي لم يعد يصلح سوى لحراسة الفلنكات.

هكذا قال له مأمور المركز، الرجل الذي فقد ابنته العام الماضي، عندما أطلق عليها زوجها - ضابط المباحث - ثلاث رصاصات لأسباب غامضة. فصار المأمور "يلوّش" في العساكر والضباط كالمجنون.

الذين دهسهم القطار يوماً، لن يتمكنوا أبداً من سرقة بندقية الشرطي السمين. الحقيقة أنهم فقدوا قدرتهم على خداع البشر يوم دهسهم القطار، وهو - مهما كان سميناً وغبيّاً - سيحتفظ بقدر من الحرص اللازم لشرطي أفنى عمره في حراسة الشوارع الخاوية.

إنه وقت كاف ليستمتع الحصان البني بعادته السرية سعياً وراء لحظة قذف هائلة، أو وقت كاف ليخلو النفق تماماً، فيشعر رجب بأنها ليلة غير عادية فعلاً، وفي تلك اللحظة التي فكر أن يطلع سلم الجرانيت الوردي ليرى بنفسه إن كان ثمة أحد على رصيف المحطة؛ يلمح وهدان يتهادى في خطوته فيقول في نفسه: عادي.. كل شيء يمضي كالمعتاد. إنها ليلة عادية.

fb/mashro3pdf

غير أن وهدان لن يضطر - هذه المرة - لتدقيق النظر، أو التحديق في وجـــوه العـــربجية وحناطيرهم المتشابهة، فالنفق خالٍ إلا من حنطور وحـــيد، ومع ذلك سوف يندهش وهدان قليلاً عندما يرى الحنطور في منتصف النفق تقريباً والنار تخبو بالقرب منه. سيفهم بالتأكيد، أن كل مـــا أحدثـــه الله مـــن تعديلات مفاجئة، يمكن احتواؤها في نفق صغير كهـــذا، لكـــنه سيفكر طبعاً، أن الطريق ستكون موحلةً بما يليق بليلة أخيرة في عام مضى، عندئذ سيتمنى - مثل الآخرين - أن بيتاً طينياً في الدرب الجديد يكون قد سقط هذه المرة.

يستطيع رجب العربجي أن يميز الحاج وهدان من بين ألف زبون.

مشيته المترنحة، جسده المكتنـــز، عباءته السوداء المقصّبة، نظارته الذهبية، وجهه الوردي وشاربه الأصفر وعيناه الرماديتان.

كـــل هذه الألوان يستطيع رجب أن يميزها حتى في ضوء المصباح الوحيد الذي يختنق في ظلمة النفق. سيفعل ذلك نتيجة لتدريب مستمر لعينيه عبر ليالٍ عديدة.

يحـــاول رجب أن يتذكر منذ متى وهو يأتي إلى هنا في هذا الموعد ليكون في انتظار الحاج.. يااااه.. عُمْر.

أمـــا الذي يسميه الناس "الحاج وهدان"؛ فعليه أن يدقق كثيراً ليميز وجه رجب، فوجوه العربجية وحناطيرهم وحتى جيادهم تتشابه في عيون رجل يرى نفسه غريباً ليس عن بلدته وحسب، بل عن اسمه وجـــسمه أيضاً. من أجل هذا سيعلن رجب عن نفسه حتى يهتدي إلـــيه الحـــاج. يسعل، أو يتثاءب بصوت عالٍ، أو ينهر حصانه بلا سبب.

عندئذ سينتبه وهدان ويتجه إليه. وقبل أن يركب سيقول بصوته الجميل: سالخير يا رجب.

fb/mashro3pdf

ثم يبتسم تلك الابتسامة المغوية التي كلما رأتها أمينة الدكر تحركت فيها الشهوة وشعرت برعشة بين فخذيها.

عندما سيمسك وهدان بمقبض الخنطور النحاسي؛ لا بد سيميل الخنطور قليلاً، وعندئذ سيدرك الحصان - بخبرة لا يستهان بها - أن زبوناً يركب، وأن عليه أن يتحرك الآن، غير أن الليلة، لا شيء يمضي كالمعتاد. سيتلكأ الحصان قليلاً، وسيضطر رجب أن ينهره.

- خلّص بقى يا نجس.

في الحقيقة خبرة حصان شيء هين، وحواسه - أيضاً - قد ترتبك، لأن ما سوف يحدث الليلة، بل كل شيء في المشهد لن يمضي كالمعتاد كأنه رسم في لوحة بيد شيطان. والخبيرون بحكمة الله يدركون جيداً كم هو مبدع وجميل، وأن لا شيء يتكرر في مملكته تماماً. فبوسعه - سبحانه - أن يضع لمساته الرهيفة على كل شيء، وفي كل وقت. فمثلاً: يمكن لاثنين من العربجية أن يتشاجرا على زبون فيصير دم، أو أن تسقط حقيبة أحد المسافرين لسبب أو لآخر ويعاونه العربجية في جمع محتوياتها المخجلة، أو أن شابّاً مجنداً لم يتمرن كفاية علي السير بالبيادة ينزلق على سلم الجرانيت الوردي فيضحك الناس.

أشياء مثل هذه تحدث بالتأكيد، فقط لتؤكد أن الله مُحكم قبضته على كل شيء. أشياء كهذه ستحدث حتى لو أرسل كلباً ليعبر النفق بلا معنى يذكر، يعبر النفق وحسب.

الليلة، أشياء كثيرة مثل هذه ستحدث. ربما لأنها الليلة الأخيرة من هذا العام. فالله - في الصباح - أنزل مطراً غزيراً، حتى تذكر الناس بيتاً طينياً في الدرب الجديد؛ فقالوا: هذه المرة لا بد واقع لا محالة. كلما أمطرت يقولون هذا، لكنه دائما يفلت من سقطة أخيرة كما يتمنون.

fb/mashro3pdf

الآن.. ثمة بقع مياه تتجمع على جانبي النفق، وكان يمكن أن نراها تلمع تحت ضوء المصباح الوحيد لولا أن شيطاناً مر منذ ساعتين ونفخ فيه فأطفأه وأراحه من اشتعال عبثي. ولأن ريحاً باردة تتجول في الشوارع منذ المساء؛ اضطر العربجية أن يدخلوا بحناطيرهم إلى النفق، ثم أنهم أشعلوا ناراً، فالناس - أيضاً - يمكنها أن تتحايل على تصاريف السماء.

هكذا.. يعود النفق مضاءً ودافئاً رغم كل التغيرات التي أحدثها الله وأنفق فيها نهاراً كاملاً. حتى أن الجياد شعرت بامتنان، فطأطأت رؤوسها ونعست في الدفء. أما حصان رجب - وكان أقربهم للنار - فكان منتشياً جداً، حتى أن عضوه تمدّد فراح يضرب به بطنه في حماس. نشوة كهذه لا يدركها سوى عربجي أدرك بخبرته، أن حكمة الله تتجلى في قوة الطبيعة الحية، ثم أنها دليل واضح على أنه رحيم بمخلوقاته. ورغم ذلك لن يتوقف عن أن ينادي حصانه: يا نجس. والحصان نفسه سيقبل هذا في صمت وربما في خجل، لكنه سيتحرك فعلا بمجرد أن يقول رجب: خلص بقى يا نجس.

fb/mashro3pdf

عندما أمسك الشيطان بيد عليّ، ووضعها على ثدي "مَارْسَا" الذي فوق القلب

لا أذكر الآن مَن قال: الطيور لها روح أيضاً يا أبــي.

ربمـا كانـت تلك المغنية السوداء. كانت تقود خلفها الرجال والنساء عـرايا، وتقبِّل امرأة من شفتيها وتغمض عينيها، ومع ذلك كانـت قبـيحة فعلاً، وأسنانها بارزة، حتى أن الأب - أيضاً - بكى، ومشى وسط الأجساد العارية.

هكـذا "مَارْسَا" كانت جميلة وطيبة، وتحتفظ بين نهديها بصليب كبير، و لم تفكر لحظة أنها سوف تقف أمام قسيسها وتردد وراءه:

إن اعترفنا بخطايانا؛ فهو أمين وعادل.

الآن.. لا يستطيع الواحد أن يخمن أين هي، ولا ماذا تفعل؟.

فالشياطين التي تنقل الأسرار وتتنصت على العشاق لا تدخل ديراً يقال له: دير السبع بنات.

مـرة وحيدة رحتُ مع جدتي لتغسل أذنها من سدد جعلها لا تـسمع صـهيل مهرة الفخراني. عدت مع جدتي وهي تسمع دبة النملة.

مسموح لنا الدخول من باب يفتح على شارع البوستة يقال له: بـاب ملائكة الرحمة. ما زالت تلك الرائحة تسكن صدري، أظنها.. مزيجاً من الديتول وبخور المستكة.

fb/mashro3pdf

لم تكــن واحدة من ملائكة الرحمة اسمها مارسا، رغم أنها كانت جميلة وطيبة، وتحتفظ بين نهديها بصليب كبير.

ربما هي الآن تدحرج كرة بلاستيكية لأطفال الملجأ، أو تسترخي في ظــل شجرة كافور عتيقة، تغزل شيئاً للقرابني العجوز الذي أشعل الفرنُ صدرَه بالدرن.

وحــين تــسمع سعلته الدموية؛ ستذكر - حتماً - أن ناشد كانــت له نفس السعلة، وأنه عندما كان يغلق دكانه ليلاً، يمر على دكــان شنودة ويخرج ثملاً، حتى أنه لا يعرف كيف يقوم من على صــندوق الــبيرة، وأكثــر من مرة كان عليّ راشد - الذي يبدو أطيبــنا - يقــوده إلي البيت، في الحقيقة ناشد هو الذي يطلب منه ذلك، في المرة الأخيرة حاول يقوم؛ فترنح وسقط على صندوق البيرة وأســقط ثــلاث زجاجات دفع ثمنها لشنودة وهو يبتسم ويتطوح هكــذا.. وهكــذا، ثم قــال لعلي: خذ بيدي يا فتى وأسندني فأنا تعبان.

في تلك الليلة قاده "عليّ" إلي البيت. كان ناشد يتطوح ويهذي: أنــا أحبك يا علي.. وجميع أهل الشارع يقولون هذا ولد طيب ويتيم مــثل نبــي. سأحكي لمارسا عن شهامتك وأجعلها تصلي من أجلك. مارسا نعجة صالحة تطيع الرب.

غــريب أمرك يا علي الليلة، أسندني وناد على نعجتي لتضعني في سريرها فأنا تعبان.

وفــيما هو عائد؛ لحقت به على سلم البيت. نادته فتوقف قرب طاقــة تــسرب شــيئاً من ضوء القمر، ثم أنها اقتربت منه حتى شاف حلمتــيها تشفان تحت قميص الأوراجنــزا، وشاف شفتيها ترتعشان وتقتربان حتى أحس صهدهما على وجهه، عندئذ أمسك الشيطان بيده

fb/mashro3pdf

ووضـــعها علـــى نهد مارسا الذي فوق القلب، ولما أحس حلمتها في منتصف كفه ضغطها برفق، أما مارسا فجذبته إليها بقوة وصخب. إذ كانت مهيّأةً تمامًا للمسة واحدة، حتى أن عليًّا اضطُر أن يضع كفه على فمها، كي لا يسمع ناشد زفزفاتها.

فيما بعد ستعترف مارسا لقسيسها أنها كانت ليلة خطيئتها الأولى منذ باغت الدرن صدر ناشد:

- وبعدها يا أبتِ عملتُ بضع خطايا في ليال أخر، لكن الله آمين وعادل.

ناشد.. أحياناً تباغته نوبات السعال فيقيء كل ما شرب قبل أن يـــصل البيت، وسوف يكون القيء مصبوغاً بالدم، فيا سلام لو بقيت الأشياءُ البريئةُ بريئةً كما هي. ويا سلام لو أن الشيطان لم يتربص بعلي ومارسا في سلم البيت.

لـــو حـــدث ذلك فإن علياً لن يموت تلك الميتة البشعة في دكان صغير وقذر، ولن تطرطش دماؤه على البنك وهدوم الزبائن، والمانيكان القـــديم، ورِجْـــل ماكينة السنجر، ومكواة الفحم الساخنة جداً، ولن يـــصرخ تلـــك الصرخة الهائلة وهو يجري في الشارع، وأمعاؤه تتدلى، وكل الناس رأوه وهو يقوم وينكفيء، ويقوم وينكفيء، ثم يستقر أمام المعصرة حيث تشربت الأرض زيوتاً كثيرة لبذور عديدة سحقت حتى الرمق الأخير.

هـــؤلاء الناس لم يدركوا - في الحقيقة - لماذا يقتل ناشد عليّاً؟، ولمـــاذا ولدٌ طيب مثله يموت ميتة بشعة كهذه؟، ولماذا صاحب المعصرة الشاب تركه يموت من غير شربة ماء أخيرة؟.

كمـــا أن الأرض المـــشبعة بالزيت لم تتشرب دماه، فيما صنعت قرصاً قانياً وهلامياً لا يجف؛ فأهالوا عليه التراب.

fb/mashro3pdf

بكـــتْهُ أمُّه أربعين ليلة حتى جف ما تبقى فيها من رواء. ذات صباح نادتها إحدى جاراتها فلم ترد، صعدت درجات السلم الطيني فـــوجدت بـــاب حجـــرتها مفتوحاً، عندما دفعته رأتها ممددة على الأرض، كـــان خـــيطاً مـــن دماء يسيل من أنفها وفمها، وعيناها مفتوحـــتان. في تلك اللحظة كانت مارسا أنهت صلاتها، ومسكت لفافة من ورق الزبدة، مدتها للقرابني العجوز، وقالت: هذا من أجل شتاء قد يطول.

أخيراً.. ماتت الأرملة حزناً. والناس قالوا هذا بيت الحزن. أغلقوه بالضبة والمفتاح، ودفنوا سرَّه تحت عتبته.

ماتت حزناً؟.

غريبة!. مع أنها اعتادت الحزن، وعرفت كيف تتحايل عليه طوال عـــشر ســـنوات. فـــبعد موت زوجها كانت تقضي نهارها في صناعة القفـــف، تبـــيعها لتاجر يأتيها ليلة السوق ليأكل وينام عندها، أحيانا كانـــت تـــستقبل الغـــرباء والوافدين إلى السوق لقاء ريال أو "خمسة تعريفة"، والناس غفروا لها هذا، قالوا: أرملة تسعى على رزق ابنها، غير أن تاجر القفف هذا كان يحظى بأكثر من وجبة ونومة في حوش البيت كما يفعل الآخرون.

عندما كان عليّ صغيراً؛ كانت تتسلل من جانبه فجراً، تغلق عليه باب الحجرة بالمفتاح، ثم تعود في الصباح بجسد مبلول ودافئ، وعندما صـــار علي شاباً وخطّ شاربه، سألها، قالت: إنه غريب ووحيد مثلي، ويحتاج لأكثر من لقمة وحصيرة ينام عليها.

كـــان علـــي يترك البيت في ليلة السوق هذه. كما أنه - في ليلة كهذه - عرف طريق المعصرة التي مات أمامها يوماً، ودخل مخزنها لمرة أولى مع سمير وهدان.

fb/mashro3pdf

قالـــت مارسا لما رأت قسيسها يصلي: إذكر في صلاتك عليّاً يا أبتِ؛ فَرُوحُهُ عالقةٌ في بيت أمه.

fb/mashro3pdf

زوج أرانب
يتناسلان تحت سرير الغانية العجوز ليلاً، ويرعيان في الحلفاء نهاراً

عندما جلس حسونة بجوار سيدة آلاجا، سمعتْه يئن، ولمحت دمعة تسيل بين عماص عينيه. قالت:

- مالك يا خويا؟.

- تعبان.

ثم مال برأسه على حجر كبير وأغمض عينيه، فوضعت كفها على كتفه وطبطبت عليه.

صحيح أن سيدة ضاجعت رجالاً كثيرين، لكن الله لم يمنحها ولداً واحداً، وذات مساء قائظ أرسل لها حسونة حتى باب بيتها.

كان ولداً صموتاً اعتاد الصبيان أخذه إلى أرض أبي خليفة ليمنحهم متعاً سريةً بعيداً عن عيون الملائكة. رأته لأول مرة يشرب من زير جعلته سبيلا للمارين أمام بيتها، لعل دعواتهم تحنن قلب الله عليها، عرضت على الولد الصموت أن يبقى معها بشرط أن يسعى على رزقه، فهي لا يمكنها أن تحمل سوى هم نفسها وزوج أرانب يتناسلان تحت سريرها ليلاً، وفي النهار، يرعيان في الحلفاء غير بعيد عن البيت خشية الثعالب.

في الحقيقة هو لم يكن بيتاً، مجرد خص كبير جعله أبو خليفة على رأس أرضه، يقيّل فيه من الظهيرة حتى اصفرار الشمس ويأكل لقمته،

fb/mashro3pdf

ولما مات، أهمل أولاده الأرض؛ فأكلتها الحلفاء وتوغلت فيها، وسكنتها الفئران والسحالي والثعالب والشياطين والأولاد الهاربون من عصا الأستاذ رزق الله.

الآن.. لا أحد يعرف متى سكنت سيدة الخص؟، ولا متى وسعته ودهكته بالطين وجعلت أمامه مصطبة وزيراً حتى صار في كامل هيئته كبيت يقول الناس عنه: بيت سيدة القحبة؟.

كل صباح ينفتح باب البيت ليخرج ولد صموت وزوج أرانب، يتحسسان الأفق في حذر ثم يمضي كل منهما إلى طريق. وفي المساء كثيراً ما يتفق أن يعودوا معاً فيما تكون سيدة على المصطبة تجلس في انتظارهم.

فقط يوم السوق، تضفي سيدة على المشهد تغييراً. تغييراً طفيفاً ولكنه يخصها، ثم أنه سيكون محور كل شيء في ذلك اليوم، منذ الصباح تختار مكانها المفضل في مواجهة خُص البوظة، لتكون في مرمى بصر الملطوشين في دماغهم، ستقاتل من أجل هذا المكان المميز، لهذا سيشهد السوق عدة معارك صباحية، تكون محوراً لمسامرات رجال البوظة وقفشاتهم، وهم يستعيدون المشهد الذي طاردت فيه الشيخ مُرسي بائع الكتب، والشتائم الجديدة التي ابتكرتها هذا الصباح، وسيتوقفون طويلاً أمام المشهد الذي خلعت فيه كل ملابسها، فلايجرؤ أحد على الاقتراب منها وهى عارية.

في طريق العودة سيكون ثمة أفق صامت، وظلمة خفيفة تذوب فيها الملامح، حتى الضوء الشحيح المنبعث من مبنى "الاسبتاليا" لن يكشف ملامحهما، غير أن تفاصيل أخرى لا تخطئها العين. امرأة قصيرة وممتلئة قليلاً تزكُ في مشيتها، تمسك بُقْجَةً في يدها وتزكُ، وولد نحيل يعلق سلة في ذراع ويسند بالآخر حمل برسيم على رأسه، فيما يقعي

fb/mashro3pdf

زوج أرانـــب حذراً أمام الباب. ولولا فراؤُهما الأبيض يلمع في الضوء الخفيف، لما تمكن حسونة من رؤيتهما، وفيما هي تحدق بعينين متعبتين يضحك، يشير إليهما ويقول:

- متخافيش.. ولادك قاعدين يا سيدة.

تضحك وتقول: يعني مين حيعرّص عليهم غيري.

في أمـــسيات مـــثل هـــذه، حكت سيدة للولد النحيل كثيراً من قصص العشق، كل عشاقها القدامى. وستتوقف كل مرة بتفاصيل أدق عند حكايتها مع عنتر عبد الهادي.

ستبدأ حكاياتها - عادة - هكذا:

- مـــش قلـــت لك يوم السوق ده يوم الخير.. تعرف زارني مين النهاردة.. ؟ ثم تحكي..

بالنسبة لولد بساقين نحيلتين وعروق زرقاء نافرة، فيوم السوق هذا هـــو يوم شقا ووجع قلب. غير أن الفتى المسكين الذي ينهكه اللف في الـــسوق وتـــؤذي مشاعره رذالة الفلاحين، سيجد ملاذاً آخر النهار. فهـــناك سيدة بجوار ساحة المواشي تجلس، سوف تلقاه حتماً ببشاشة، تبتـــسم وتكـــشف أسنانها الذهبية، وسوف تمسح رأسه بكفها الخشن المـــصبوغ بالحناء، والأظافر الطويلة القذرة، وتلك الأساور البلاستيكية الملـــونة التي اشترتها من السوق - نفسه - تشخلل في يدها، وهي تهش الـــذباب عـــن عينيها الملتهبتين اللتين بلا رموش، وكُحلة داكنة الزرقة حولهما، تطبطب براحتها على الأرض: تعالى يا ضنى أمك.. استريّح يا خويا.

يقول: دوخة وحياتك يا سيدة.

- يا واد استرجل شويه.. مش كده.

يريح سلة السوداني عن ذراعه، يرفع ذيل جلبابه وهو يجلس.

fb/mashro3pdf

وعـــادة تدس يدها في بقجة بجوارها، وتمنحه شيئاً يأكله، كثيراً يـــرفض ويقسم أنه غير جائع. في الحقيقة.. هو عادة يكون على لحم بطنه، غير أنه لا يحب أن يقول الناس: إن حسونة يستقطع ولية غلبانة ولا أحد لها في الدنيا.

ثم أنـــه لا يـــستطيع أن يمنحها شيئاً في المقابل، فأسنانها - حتى الذهبـــية منها - لا تقوى على طحن الفول السوداني، ومع ذلك فقد يمنحها سيجارة أو سيجارتين. هو بالطبع لا يدخن، ولكنه أخذها من هـــؤلاء الذين اختلوا به في طريق جانبـــي، في وقت لا يسمح بحدوث شـــيء، غـــير أنه كاف لإثارتهم، بحيث يمكنهم إذا عادوا لبيوتهم، أن يـــستعيدوا تلك اللحظة، فيضفون على عاداتهم السرية شيئاً من الإثارة الحـــية، وهـــم في مقابل ذلك لا يبخلون بسيجارة، أو يشترون بقرش سوداني، والأهم من ذلك أنهم يغامرون - وهو في الحقيقة ثمن فادح - إذ يعرّضون أنفسهم لفضيحة لو رآهم من يعرفهم، وهو يقبل عطاياهم باعتبارها عربون محبة، وتهيئة لموعد آمن لا يجيئون فيه عادة.

fb/mashro3pdf

خاتم فضي كبير،
وعصا لها كعب نحاسي يلمع
في الشمس

حين خرج من خُص البوظة، وقف أمامها بجلبابه الأزرق وعصاه فامتد ظله طويلاً حتى غطاها. هي لم تلحظه وهو يتأملها بابتسامة غائمة.

الكحلة الزرقاء.

الأسنان الذهبية.

كفان مخضبتان بحناء أرجوانية.

أساور بلاستيكية ملونة، وعطر ثقيل فواح في كل مرة كان يكلفه غطساً في الترعة، قبل أن يعود لبيته.

- إزيك يا ألاجا؟.

رفعت رأسها وضيقت عينيها حتى تراه. بدا في ضوء الشمس الذي يعشي عينيها مجرد قامة طويلة، وصوت عميق متهدج خفق له قلبها فابتسمت، ولما تربع بجوارها في مساحة الظل، وأراح عصاه على فخذيه، مد يده في صدره وأخرج علبة الدخان المعدنية.

- والله ما عرفتك يا عنتر.

- الكبر عبر يا سيدة.

قالها بإذعان وهو يهز رأسه، وينظر ناحية حسونة الذي بدأ شخيرُه يعلو.

fb/mashro3pdf

- الولد ده لازق لك على طول كده؟.

- غلبان والنبـــي.

- إنت اللي طيبة وعلى نياتك. يكونش ابنك يابت!

- يعني لو ابني، حيكون أبوه مين غيرك ياعنتر!

تقولها وهي تضحك، كمجرد جس نبض، لكن نظرة غضب من عيـــنين متعبـــتين، مازالت قادرة على تذكيرها بالعُلق التي أخذتها منه، كـــبداية مـــثيرة لمضاجعة مجنونة، ينشب كل منهما أظافره في الآخر، هـــذيان محمـــوم بأصوات اللذة والألم، وسوائل تجري بينهما، لها طعم دموع العين وملمس لعاب الفم ورائحة الجسد.

مد يده بالسيجارة، فرأت الخاتم الفضي الكبير، وفصّاً أزرقَ مموهاً بخـــيوط دخانية، وأصابع طويلة جافة شوهها الروماتويد. صدت كفَّه بدلال فلامست الحناء زرقة الفص بخفة.

- خد مني واحدة ماكينة.. لساك بتلف؟

- اللف كيف يا سيدة.. مانتي عارفة.

قالت: طول عمرك كييف الحلو.

ثم رقصّت حاجبيها المزججتين وقالت: يا حلو أنت يا حلو.

ابتسم حتى بانت سنتاه الوحيدتان.

- يااه.. لسه فاكره يا بت؟

كلمة السر بينهما كلمة واحدة فقط، كان يرددها، وكانت هي تـــردد نفـــس الكلمة. كلمة واحدة كانت كافية لتصاحب إيقاع لذة اللحظات الأخيرة، ستكون مسبوقة بلحظة صمت خاطفة، تنقطع فيها أنفاســـها قـــبل أن تدخل في هزة عنيفة وصرخات متلاحقة، وبنفس الصوت العميق المتهدج يهمس في أذنها. حلو يا بت؟

وبنفس الصوت المرتعش تلهث تحته: حلو.

fb/mashro3pdf

وفي لحظـــات ذروتها ترددها بسرعة.. حلو.. حلو.. حلو يا ابن الكلب.. حلو. وفي لحظة كهذه فقط؛ يَسمح لامرأة أن تشتمه.

فجأة قالت:

- إزاي مراتك يا عنتر؟.

- يوووه. تعيشي إنتي.

غالبت ابتسامة بمكر جميل، ونظرة انتصار قديم في عينيها، لكنه لم ينظر إليها، كان منهمكاً في لف سيجارته، أو هكذا ادعى، ولما وجدته صامتاً قالت:

- تلقاها ماتت بحسرة ليلتها.

وكـــادت الضحكة تنفلت منها، أما هو فظل صامتاً للحظة، مرر فيها سيجارته على لسانه، هز رأسه وقال:

- افتكري لها الرحمة يا ولية.

غالـــب ابتـــسامة شجية وهو يضع سيجارته بين شفتيه، يشعلها بهدوء، يحدق في اللهب الصغير قبل أن يلقي بعود الثقاب على الأرض، ينفخ دخاناً كثيفاً، ويسرح بعينيه في زمان بعيد.

- فاكرة يا سيدة لما عملتي لي عمل؟.

- أنا؟. تنقطع إيدي يا خويا. دا أنت الغالي.

يلملم شروده قليلاً.

- غريبة.. دا أنا قعدت تلات تشهر مربوط بعد الجواز.

تبتسم نفس الابتسامة الماكرة.

- مـــربوط ولا نفـــسك مسدودة. حد برضو بعد الحلو يروح للمش؟.

تـــضحك، ويضحك، ويتصاعد دخان كثيف، دخانه ودخانها، ويحوم بطيئاً تحت المظلة، فيهيج الذباب اللصيق بالخيش والجريد، ويحط

fb/mashro3pdf

حول فم حسونة المفتوح على آخره، تمشه فتشخلل الأساور في يدها. ينظـر إلـيها وتنظر إليه، لحظة طويلة تمر، أشواق قديمة تتفتح بدلال، فـتلمع وراء زرقـة الكحل في عينيها، ويلعق شفتيه بلسان فيه صفرة الـدخان، ثم فجأة تنفجر الضحكة من جديد، واحدة عميقة متهدجة، وواحـدة رنانـة صافية، فيما كانت مساحة الظل تتراجع، والشمس تـزحف نحو مساحة الظل، فتطول ساقيْن نحيلتين بعروق زرقاء، ويد بخاتم فضي كبير ممسكة بعصا لها كعب نحاسي يلمع في الشمس.

fb/mashro3pdf

الشيطان..
الذي انتهز الفرصة ووقف يرسم صورته بنفسه فجعلها بعينين ليكذب كلام البشر

البنت التي تأوي روح البنات كلهن طلعت السلم، وجاءها الهواء حـزيناً فلـم يمسها، ومع ذلك فهي تضم فستانها بين فخذيها، كلما قاربـت الحافـات، وتتأمل طيور المساء تحوم في جماعات صغيرة، فيما يرقص الثعلب على سطح البيت المقابل، يرقص دون أن يلفت انتباه أي طـير، ربمـا.. الطيور مشغولة بجراحها اليومية إثر مطاردات الأولاد ونـبالهم الصغيرة، والشيطان الذي انتهز الفرصة، وقف يرسم صورته بنفسه، جعلها بعينين ليكذب قول جدتي:

- الشيطان بعين واحدة فلا يرى غير الشر.

يا الله!

الشيطان يتوق لعين أخرى يا جدتي، ثم أنه لوّن وجهه بالمساحيق الجمـيلة. ومع ذلك فالله لم يمنحه روحاً واحدة، وهو بعد ذلك لم يعد يخيف الولد البدين الذي ظل يحلم بصندوق كعك العيد، وحذاء جديد، وأمٌّ لم تعد من السوق بعد، ونسيت شياهها الصغار تلهو بنـزق قرب جحور الثعالب.

ذات لـيل جلـس ولـد أسمر في بيته الطيني يغني للقمر والعيون الـسود، غناءً وحشيًّا سمعته امرأة تتقلب في فراشها، فأحست ركض الذئاب في دمها.

fb/mashro3pdf

عشرون عاما من الوجع والخمش اليومي حبستها مارسا في الدير حتى انسكب عطرها يوماً وهي تستحم. عطر ورديّ ذكّرها بأول مرة وهي على دكة المدرسة تجلس.

في هـــذه الليلة انسكب عطرها فلم تقدر تحوشه، غير أنها عوت وأنّت وتلوّت كما يليق بامرأة أربعينية.

في اللـــيالي الـــتي يأتي فيها بصحبة ناشد، كان عليٌّ يلمسها عن قـــصد، ويلتصق بها حتى أحست عضوه ينتفض بين ردفيها فلا تعرف كيف تمكنت من صعود السلم ولا كيف ملكت أعصابها حتى وضعت ناشـــد في سريره، وفي ليالٍ أخر، كانت تتفادى لمساته التي ظنتها عن غير قصد، حتى ليلة أخيرة تسلل فيها ضوء القمر، وأضاء بضع درجات مـــن سلم البيت، فكانت مهيأة تماماً للمسة واحدة.. لمسة واحدة لنهد مؤرق فوق قلبها تمامًا.

أمـــا الـــولد البدين فكان لا يجيد الرقص كما يظن هو، أو كما ينبغـــي للرقص أن ينبه الطيور، ولما استعار كتاب الجغرافيا، وضع فيه وردةً حمراء وأعاده لزينب سليمان، وكتب في الصفحة الأخيرة:

"دلـــيل الحـــب.. فالورود الحمراء معروفة هكذا.. أنا وأنت غرباء، وكلانا عشق أسطح البيوت القديمة، والحجرات الموحشة".

فردت إليه وردته وقالت: نسيتها في كتابـــي.

واللهِ الواحدُ ليسلِّم بأن الروح دائماً تتوق لأجساد أخرى. فعليّ الـــذي سمـــع بكاء الحليب في نهدي مارسا؛ مال برأسه على صدرها.. هكـــذا، وأغمض عينيه، ومارسا التي لم يتقوس ظهرها تحت رجل منذ باغت الدرن صدر ناشد، جذبته إليها وبكت، فتقاطرت الدموع على شعره، وعندما رفع رأسه إليها قالت: أنفاسك طاهرة يا علي.. فقرب مني شفتيك.

fb/mashro3pdf

ومع ذلك كان عليّ يشاركنا سجائرنا أحياناً، ويقبل عزومة من ناشد بجرعة نبيذ. كثيراً حدث هذا، وكم من مرة طلب ناشد من علي إشعال مكواة الفحم. تلك التي تفزز دمه عليها ذات صباح:

- أنـــا يا علي مريض وصدري لا يستحمل النار.. وصدرك هذا فـــتيّ يـــا ولد.. وقليل من النبيذ يقويك. سأعلمك يا عليّ كل شيء. يا سلام لو كان لي ولد مثلك!

كان عليٌّ ينفخ النار، ومارسا تمد أنفها وتستنشق؛ فتجدها أنفاساً ذكـــورية لها رائحة خوص النخيل المبلول التي تغمرها بالفرح في آحاد السعف. تتذكر لما قرصتْها أمُّها من صدرها الصغير وقالت:

إبصقي..

فبصقت نسيلة السعف التي مضغتها.

قـــرب شفتيك منيّ يا عليّ، وضعهما بين شفتيّ ودعني أمصهما، وإن شئت فادفق ريقك في ريقي. واعملني مثل عجينة في يديك.

"ميلي يا مارْسا إذن بما شاء لك الربُّ لأن مَن له سيعطى، ومن ليس له فالذي يظنه له يؤخذ منه".

مـــا كان عليّ سوى ولد طيب يمشي سرحان ورخياً، فلا يكاد يلمـــس الأرض، ولا يحدق - مثلنا - في النساء اللاتي يحملن طسوت المـــاء، وينحنين بأعجازهن أمام حنفية الاسبتاليا، فتشف ملابسهن عما تحتها، ولا اعتاد يوماً يذهب للنهر، ليشاهد أفخاذ البنات وهن يدعكن أوانيهن حتى تضوي في الشمس.

كـــان عليّ ولداً طيباً بجد. لا يقول لنا سرَّه حتى يسألنا: السر في بير؟.

- في بييرر..

ونمد الياء والراء ليكون البئر عميقاً.

fb/mashro3pdf

فمَن أبلغ الأوسطى ناشد إذن، ودله على مكان الخدوش في ظهر علـــيّ؟ وسر عضة على شفتيه؟ حتى إنه لما دخل عليه قال: هذا نبيذك يا عليّ فأشعل المكواة إذن، فما قدر أن ينفخ النار ويقرب وجهه منها. فقال ناشد: من أي شيء جرحك الذي في شفتيك يا ولد؟.

وكـــان المقـــص الكبير أمامه على "البنك" مفتوحاً، فيما كانت مارســـا في الحمام ترش جسدها بالماء الحار؛ فأحست لسعات الخدوش علـــى ظهـــرها، ارتعاشة مباغتة وتنميلة في الجسد المبلول، والماء على زهـــرته يـــشف، فمـــا قدرت على فتح عينيها، وهمست لنفسها. ابن الكلب.. أظافره طويلة.

ولما تحسست أظافرها، وجدتها طويلة أيضاً، فركنت رأسها على الحائط المندّى بالبخار وابتسمت.

fb/mashro3pdf

الملاك الذي صار شاباً، وجلس يبكي على باب حمام المرأة التي تحولت إلى مهرة

كيف لنادية البريئة أن تدرك كل هذه الأشياء الغريبة التي تجري لها؟.

بطـــريقة ما تعرف أنها من ألعاب الشيطان. نوع من التخمين لا أكثر. فلا أحد يستطيع أن يدخل أحلامها ويعذبها بنشوة موجعة وغير مكتملة سوى شيطان، وكل حيلتها - عندما تستيقظ - أن تتف على يسارها وتقول: اللهم اخزيك يا شيطان.

هذا.. لا يغسل قلبها من الوجع الذي يسكنها كل هذه السنين، ويـــشغل أحلامهـــا بمـــساحات من الصور الغائمة لرجل يضاجعها ثم يتركها قبل أن تنتشي أو تمتليء عيناها بدموع وألق.

هـــنا.. وفي هذه اللحظة تماماً، تصطخب اللذة بألم يدركها وهي تصرخ في ضباب الحلم، حتى يهزها النائم بجوارها، ويلعن أبوها واليوم الأســـود الـــذي شافها فيه، ثم يواصل نومه، مع أنه لو لمسها لفتحت حدائقها وفاح عطرها بين يديه، إذ كانت حتى هذه اللحظة تحاول أن تعـــرف ملامـــح الوجه الجميل الذي يحتويها حتى تهدأ بين ذراعيه، ثم يغيب شيئا فشيئاً في انسحاب الحلم، تدرك أنها تعرفه، غير أنه يأتي من ذاكرة بعيدة وحضور مستحيل فلا يكتمل.

فقـــط شـــعور بلـــذة تسيل بين فخذيها حتى تغمرها برخاوة وصمت دافئ، وتسمع كخرير الماء يخرج منها، وترى فرساً عظيماً

fb/mashro3pdf

يطـــير في ظـــلام بعيد تاركاً خلفه مهرة مربوطة في شجرة تجلجل بصهيل مجروح.

تتـــسلل ناديـــة مـــن جنب النائم في سريرها يشخّر، وفي الحمام ستجلس لتغتسل وترى أثر الكرباج على فخذيها لم ينطفيء بعد، تمرر أصبعها عليه بشويش، وتحبس دمعة في عينيها. كثيراً فكرت أن تسرق الكرباج، لكنه يخفيه في خن فلا تصل إليه يداها أبداً. واحد من ميراث أبيه، اعتني به أكثر من البيت الكبير الذي تآكلت أحجاره البيضاء يوماً بعـــد يـــوم، فيما ترك الكارتة في الفناء تضربها الشمس، وتسكن فيها الفئران والعُرَس. كم مرة فكّرت أن تحرقها؛ لتنتقم لدجاجاتها التي لا بد تتألم كلما لاحظت أن واحدًا من أفراخها اختفي.

تحـــاول تـــشغل نفـــسها بحماية دجاجاتها. تمرر الأيام بنصب الفخـــاخ والمـــصائد في جوانب الحوش الكبير. ذات صباح وجدت فرخاً ميتاً في مصيدة نصبتها بنفسها، هكذا.. كان عليها أن تُمضي نهـــارات عبثية، تحاول تحمي دجاجاتها، وليالٍ تسكنها أحلام لنشوة لاتكتمل.

هـــي الآن تفكر في الوجه الغائم الذي يزور أحلامها - فقط - ليطـــبطب عليها. كلما جفت ينابيعها يمنحها شيئا من رطوبة ورحيق. في كل مرة يتركها من غير أن تعرف من هو.

من هذا؟.

وكـــيف احتواها وهدهدها باشتهاء أبوي حتى هدأت في حضنه مـــثل قطة ضالة، واستسلمت لأصابعه تتحسسها وتلمس أوتارها حتى تصدح بالرنين.

يـــا الله.. نادية جميلة وبريئة إلي هذا الحد حتى لا تفكر سوى في الشيطان وعمايله السودة.

fb/mashro3pdf

نادية لا تعرف أن ملاكها الذي صار شاباً يافعاً يجلس الآن أمام باب الحمام في انتظار أن تخرج؛ فيملأ صدره برائحة التوت الذي يتناثر منها.

في هذه اللحظة بالضبط، كان الملاك على باب الحمام جالساً يبكي:

يا رب.. أنت كلفتني بها، وإني لا أستطيع أكون معها في الحمام لأمسح دموعها، ولا أستطيع أظهر في أحلامها بهيئتي الشفافة تلك، بل إني لا أقدر أكون بدلاً من النائم جنبها لأصحّيها برفق في اللحظة المناسبة. كل ما سمحت لي به أن أخفي الكرباج عن عيون زوجها كلما أعماه الغضب. هذه حكمتك.. أنت حرّمت عليّ ما تسمح للشيطان يفعله.

طأطأ الملاك رأسه ونظر للأرض خجلان:

نعم أحببتها. منذ رأيتها أول مرة مع العيال تلعب تحت شجرة التوت. هي بريئة وجميلة. وعشقي لها مثل عشقي لجمالك وجلالك. على الأقل اسمحْ لي أطير بها ولو لمرة واحدة.

والنبي يا رب. مرة واحدة على الأقل حتى أخلصها من خطيئتها التي كنت مسؤولاً عنها.

وجلس الملاك الذي أصبح - الآن - شاباً يافعاً يبكي يداري خجله من تلك الابتسامة البلهاء التي رسمها لما شاف العيال يزنقوها بجوار الميضة. وكان وقتها صغيراً ويلعب مع العيال، حتى أنه لم يعرف مثلهم، إن كانت تصرخ أم تصهل. عندئذ قال الملاك لما سمع نشيجها من وراء باب الحمام:

- هذا ليس عدلاً.. فنادية كانت بريئة وأطهر من قطرة ماء تنز من عرشك العظيم. فتلك المداعبات الصبيانية، ولمسات الولد الطويل لم

fb/mashro3pdf

تنل منها بعد. وما فعله شيخ الجامع معها لم يكن برغبتها، وهى كانت صغيرة وبريئة لا تفهم شيئاً عن شهوات الكبار، هو الذى يستحق الحرق بالنار، لماذا تعذبها من أجل خطايا الآخرين، وتترك زوجها يسكر كل ليلة ويضربها بالكرباج؟.

نادية بريئة. وأنا أشهد على هذا. إذ ظل شعرها ملموماً وضفيرتها جزلة كما جدلتها أمها في صباح المدرسة. حتى خرج من الميضة عبدك الأعمى لما سمع صوتها، تصرخ وتجري من الأولاد، فضحك العيال، من كرشه البارز تحت فانلته القصيرة، ولباسه الساقط جداً حتى ليكشف شيئاً من عانته، وأنا نفسي ضحكت، ونادية أيضاً كادت تضحك.

كان يمكن أن يمر كل شيء مثل مزحة والسلام، لولا أنها اندفعت إليه، واختبأت في حضنه، وكان وتره مشدوداً من دفء الشمس التي يتمدد فيها حتى تحين صلاة الظهر، عندئذ أحسته لدنا ودافئاً ينتفض بين تفاحتيها المرتعشتين أصلاً من لمسة الولد الطويل، فسابت مفاصلها، حتى أنها لانت بين يديه وهو يسحبها إلي الميضة ويغلق الباب. كانت مهيّأةً لخطيئتها الأولى. فقط مهيّأة، ليس بما يكفي لاكتمال تبحث عنه في أحلامها فلا تجده أيضاً. وكانت تسمع زياط الأولاد في الخارج يصرخون في نشوة ممتزجة برائحة التوت:

سيب النعجة يا خروف...

فسابها، وعادت إلي أمها ببقعة كبيرة على مريولها ظنتها المرأة الساذجة من أثر الجرانيتا التي تشتريها نادية من كانتين المدرسة.

قال الملاك الذي جلس بالقرب من باب الحمام يبكي.

أغفر لي يا الله. نادية ما زالت بريئة وأطهر من قطرة مطر تنزل من سمائك الواسعة.

fb/mashro3pdf

فنادية عندما لانت بين فخذي الأعمى كانت بلا تجربة وأرادت فقط أن تعرف. هكذا قالت لي في حلمها الأخير، وأنا شيء من مخلوقاتك، فأين لي بعلم الغيب؟.

إغفر لي يا الله إن شككت بحكمتك، غير أنني لا أصدق أن الشمس التي في سمائك هي نفس الشمس التي سكنت جسدها في الأيام الأولى، وفركته بدفء وحنين حتى طالت بوهجها مناطق لم تطلها أيادي الأولاد الذين زنقوها خلف جامع سيدي أبي طاقية.

قال الولد البدين للملاك الجالس على سور السطح يبكي.

- أما زلت تذكر يا ملاكي الصغير؟.

أنت نفسك تركتها تصرخ يا أيها الملاك، ورحت ترقبهم بابتسامتك البلهاء، وتركتهم يزنقونها وظهرها للحائط الذي سخنته الشمس، فمسّد ظهرها بحرّ فاتن؛ حتى خرج الصهد من شفتيها، ثم أنك - وربما بحسن نية - دسست في أصابع الأولاد سحراً، كما أنك - عندما لامسوا تفاحها - جعلتها ترتعش وترتبك، فصارت لا تعرف، إن كانت تبتسم للولد الطويل خشن الصوت هذا، أم تشتمه. ذلك الولد الذي تجرّأ ورفع ذيل مريولها القصير أصلاً.

صدقني يا ملاك، هي خطيئتك أنت، لأنك بسذاجتك تلك جعلتها مهيّأة للشيخ الأعمى.

كان بمقدورك - أيها الملاك - أن تضرب العيال أو على الأقل تحوشهم عنها بدلاً من جلوسك - هكذا - تحت تلك الشجرة.

تعرفها طبعاً، الشجرة التي أمام الميضة.

تذكر؟.

لما رأيتك هناك أول مرة.

fb/mashro3pdf

أنا لا أفهم ما الذي يجيء بملاك مثلك لمكان كهذا؟.

كل ما تفعله أنك تلعب مع العيال الشياطين هؤلاء!.

ثم أنك تكلف نفسك هذا العناء لتطلع الشجرة وتهزّ فروعها المليئة بالثمار لهم، مع أنك لو تركتها لسقطت من تلقاء نفسها. هل أنت مكلف بهذا؟ هل هذه وظيفتك ياملاك؟

أنت - حتى - لاتأكل التوت مثلهم، فقط تساعدهم في التقاطه، وتعلمهم أن يغسلوه من روث البهائم التي لا يحلو لها إلا الشخاخ هنا وهي في طريقها للسوق. كل ما تفعله أنك تحذرهم إذا دخلوا الميضة التي خلف الجامع وأحس بهم الشيخ الضرير، فقد يحذف الواحد منهم بفردة قبقاب تطير كيفما اتفق.

إسمع يا حضرة الملاك. إذا كنت تظن أن كل ألعابهم بريئة لمجرد أنهم عيال فأنت مخطئ. ماذا ستفعل لو رأيتهم يلعبون لعبتهم الجديدة التي اكتشفوها وراء أرض "أبو خليفة"؟ لعبة التباهي بالأيور الصبية، والعانات التي نبتت للتو!.

أنت لم تكن موجوداً هناك حتى تراهم، وهم يكتشفون أجسادهم ويلمسون حواساً تتفتح وتزدهي.

طبعاً.

لك حق!

فالملائكة الطيبون أمثالك لا يذهبون إلى تلك الأماكن المهجورة خالص.

حتى لو رأيتهم، فأنت لن تفهم معنى الشغف واختلاجات القلوب الصغيرة عند الانتصابات الأولى. كنت ستغضب كعادتك أو تبصق عليهم كما بصقت عليّ وأنا أعملها وراء السور لمارأيت نادية تعرى فخذيها للشمس.

fb/mashro3pdf

لهــذا.. إسمــحْ لي يـــا حضرة الملاك.. أنت لم تفهم لماذا هاجوا كالـــزنابير لمـــا شـــافوا بينهم بنتاً تنحني وتلتقط الثمار، ثم تزم شفتيها الـــشهيتين، وتنفخ فيها لتطيّر التراب من عليها. هي لم تكن تدري أنه يـــراها! ولا انتـــبهت إلى الولد الذي رصدها من بعيد، وشاف نظرتها الـــبريئة للأولاد الفرحين بالتوت، فابتسم ونوى شيئاً، حتى أنه وبمجرد أن انحـــنت لتلـــتقط إحدى الثمار، رفع تنورتها القصيرة أصلاً، والعيال الذين شافوا لباسها، هاجوا كالزنابير.

- يا ولاد الكلب!!.

والله أنا لا أفهمك يا سيدي الملاك!.

إذا كـــنت طيباً بجد، فلماذا تركت الشيطان يوزّها؛ لتهرب من المدرسة أصلاً؟

ولمـــاذا تركتها تأتي إلى مكان قصي ليس به سوى أولاد مدرسة الصنايع البايظين؟.

أنـــت تعرف شقاوتهم. وكنت تعرف أنها اشترت بمصروفها ستة ديدان قز، ووضعتهم في صندوق سجائر البلمونت الذي أخذته من عم شنودة خصيصاً لهذا الغرض.

ألم تلاحظ؟.

هـــذا العجـــوز بمجرد أن رآها وبصّ في عينيها ارتبك، وشم نسغًا طازجـــاً وشهياً حتى أحس بنبضة خافقة بين فخذيه؛ فرسم الصليب على صـــدره. كـــان ملبوخا حتى أنه لم يقدر أن يقول لها: لا صناديق فارغة عندي. فأفرغ واحدًا على عجل حتى تدحرجت سجائره على الأرض فلم يـــنحن علـــيها ولم يلمّها. فقط أعطاها الصندوق بيد مرتعشة من غير أن يـــرفع عينـــيه عنها، وعندما غادرته؛ تنهد وقال في نفسه: يا يسوع. هذه البنت تغوي الشيطان نفسه. وظل كلما رآها تمر بدكانه يرسم الصليب.

fb/mashro3pdf

في الحقـــيقة هـــي ما جاءت هنا لتلتقط ثمار التوت مثل الأولاد الأشقياء. جاءت من أجل بضعة وريقات تطعم ديدانها الصغيرة.

أنت تعرف هذا، وإن كنت لا تعرف ها أنا أخبرك.

أرأيت يا ملاك؟!.

كـــان علـــيك أن تسقط لها بضع وريقات توت طازجة؛ لتطعم ديـــدانها الستة. فالأوراق الطازجة لا تسقط لوحدها. لكنك بدلاً من هذا أسقطت لها مزيداً من الثمار الشهية، حتى أن البنت المسكينة سال لعابهـــا لما رأت التوت ينـــزل على رأسها وصدرها ويغمرها بالرائحة الحلـــوة، ثم بعد ذلك جلستَ جلستك هذه، ولم تحرك ساكناً لما رأيتَ العيالَ يطاردونها ويزنقونها عند حائط الميضة.

تصورتها واحدةً من ألعابهم البريئة التي تتفرج عليها في صمت.

أنـــا أعذرك علي أية حال، كيف لك أن تفهم الفرق بين الأولاد والبنات في مثل هذه السن؟!.

هي كانت تريد ورق التوت ولكنك غمرتها بالثمار يا جدع. ثم أنك تركتها تصرخ وتجري، وتركت الأولاد يطاردونها بفرح هستيري سرى بينهم كالعدوى.

. بـــل أنـــت لم تفهم إن كانت تصرخ حقاً أم تصهل؟. تبكي أم تزغرد؟!.

فصوتها كان شيئاً بين هذا وذاك. شيء لفت انتباه "أبلة زكية" لمـــا سمعتْها تغني في طابور الصباح؛ فانتشت (زكية) حتى أنها مالت أكثـــر مـــن اللازم على الأستاذ حسني، وهمست في أذنيه المليئتين بالشعر:

- البنت دي بلغت يا حسني!.

وهو كان ساهماً يبحلق فيها فلم يرد.

fb/mashro3pdf

هـــل خـــشيت فتنتها فتركتها تصرخ كما تشاء، وتركت العيال يـــزنقونها وظهـــرها للحـــائط، وتركت الشيخ الأعمى يقوم بمهمتك المقدسة، فمن أدراك أنه طيب حقًّا أو حتى يعرف ربنا؟؟.

ألمجـــرد أنه شيخ!. أم لأنه أعمى ولا يمكنه أن يرى ازدهار التوت على بعد أمتار من مسجده!.

كل ما عملته أنك ابتسمت ابتسامة خلقت خصيصاً لملاك طيب كلـــف بمـــراقبة الصبية العفاريت. تلك الابتسامة التي لم تفارقك أبداً، وكأن رساماً ماهراً وضعها على وجهك.

fb/mashro3pdf

الأعمى..
الذي أدرك صهيل البنت؛
فاحتواها من أجل قذفة أخيرة

أبداً. لم تكن مجرد نظرة لولد السطوح على امرأة تستلقي وتعري فخذيها للشمس.

كانت مكاشفة.

لما رأيتها بعينيك اللتين شافتا أكثر مما يجب لولد في سنك.

كانت يقظة الحواس الأولى التي ما زالت تخايلك بوخزاتها البرية.

فيما بعد ستقول جارتكم (أم طارق) لما ضبطتك تنظر إلى مؤخرتها من تحت لتحت:

- عينك تندَبّ فيها رصاصة يا واد انت.

ومن قبل كنت تمرن عينيك على الجارات اللاتي يطلعن بنهودهن في الشرفات. وكنت ترى أن حمالات الصدر السوداء هي الأكثر أثارة لنهود البنات.

لماذا أنت مشغول بمبرر تقوله للملاك الذي بصق عليك لما رآك تهتز وترتعش وراء السور وأنت تبص عليها فتعصف من خلاياك نشوة ووهجًا؟.

يا الله!

ماذا تقول له الآن؟.

fb/mashro3pdf

تبلل سروالك في نهار رمضان، ولا تقدر على مقاومة الهزيم الذي عصف بك بغتة.

إنظر بعينيك يا أيها الملاك.. إنظر.

إن كان لك عينين مثلي، وحدثني عمن تراها الآن تستلقي هكذا وكأن الشمس خلقت من أجلها. تغطي وجهها بطرحتها السوداء لكي لا يراها الولد الذي باغتها بصوته الجديد في الأسبوع الفائت حتى أنها ابتسمت له وقالت:

- أنت ابن سعاد؟. والله ما عرفتك. كبرت يا ولد واخْشنَّ صوتك.

قالتها هكذا. بصوت ليّن وابتسامة مغوية.

هو أيضا ابتسم، غير أنه لم يكن مهيّأً بعدُ لهديل امرأة. كانت تجاربه بدون مواجهة أو كلام. كانت مجرد تلصص، ولذلك لم يقل شيئًا سوى أن مر من حجرة نومها إلى شرفتها، ولم يقدر على أن ينظر في عينيها، ويشوف رعشة عابرة، فيما يجرجر فرع الزينة والفانوس الذي سهر عليه للصباح حتى كساه بالسوليفان الملون.

فكر أن يخبرها كيف اقترح على الأولاد الآخرين إعفاءها من المعلوم الذي جمعوه من كل بيت؛ لأن نادية ليس لديها أولاد مثل أمهاتهم.

وبشيء من الحدس فكر أن رمضان هذا العام سيكون له طعم جديد. وربما سيكون آخر رمضان يشارك فيه الأولاد تعليق زينة الشارع.

على أية حال مَنْ مِنَ الجارات ستسمح له بدخول بيتها في العام القادم؟.

قال الملاك الذي جلس عن يمينه يبكي.

fb/mashro3pdf

أنـــت يـــا رب خلقتها هكذا، وخلقت الشمس التي أنضجتها، وبخّـــت في مفاصلها شيئاً من الخدر واللذة الحانية، وبحكمتك أعطيت الأعمـــى فيـــضاً من حواس حتى أنه الوحيد بيننا الذي أدركه صهيلها الأول.

هكذا احتواها. وهكذا هيأها لتقترب من خطيئتها الأولى. حواس تستيقظ للتوِّ، وفضول لا ينتهي للمس الحياة وهى تسري في الأعضاء، فمـــا قدرت أن تحوش نفسها عن لمس المنتفض بين تفاحتيها، فدفست نفـــسها فيه، حتى إن خادم بيتك المقدس ارتعش، فقبل رأسها من أجل قذفة أخيرة جاءته بعد سنين العماء وخدمة المصلّين.

الناس من وقتها يشمون ريحها كلما جاءت أو راحت، ويقولون: نادية ناعمة وطرية، وفي عينيها شيء يدعو الرجال للمسها، حتى إذا ما لقـــيها الـــواحد منهم في السوق، أو في مكان ضيق فاقترب منها حتى لامسها، جفلت وارتخت، ثم تروغ بعينيها في فضاء وكأن المكان خواء مـــن حولها، فلا تسمع سوى هديل غير مكتمل يغمرها كنشيث المطر، وعطر يفوح.

fb/mashro3pdf

المرأة

التي عرت فخذيها للشمس، وتركت الكتاكيت تتقافز، وتنقر شيئا بينهما

لو سألت واحدًا: أين شارع بسادة؟.

لَعَقَدَ بين حاجبيه، واحتار لحظة، أو زَرَّ عينيه ونظر للسماء كأنما يستدعي الأسماء من أماكنها. وقد يمر وقت غير هين قبل أن يخبط جبهته ويقول: آه. تقصد شارع الدير؟.

للشوارع هنا أسماء وحيوات تشبه سكانها. ذكريات مخزونة في قلوب العاشقين، وأخرى متروكة في الطرقات تلهو بها الشياطين والصيع وكلاب السكك.

فقط. يذكّرهم الاسم بالدير القائم صامتًا في نهايته.

غريبة!!.

كيف فرض الصمت نفسه؛ فنسي الناس اسم الشارع الحقيقي وراحوا يقولون: "شارع الدير" لمجرد أنه يذكّرهم بمارسا، والولد الذي كَبَرَ وعشق قبل الأوان؛ فطشطش دمه على مكواة الفحم؟.

ومع ذلك لو سألت أحدهم: أين شارع الدير؟..

لقال لك بكل براءة - وكأن مارسا لم تخطر على باله - الشارع الذي يبتدئ من الدرب الجديد وينتهي عند زقاق السبع بنات.

للشوارع هنا حكايات، وأسرار مدفونة تحت عتبات البيوت.

fb/mashro3pdf

فهل دفنوا حكاية مارسا وعليّ تحت عتبة البيت الطيني الذي غمرته الأمطار لثلاث ليال حتى لان وانبعج وانتفشت جدرانه، فظن الناس أنه ذائب لا محالة؟.

وبقى الناس ينتظرون اختفاءه في كل يوم، وفي كل صباح يفتحون نوافذهم، ثم يشعرون بشيء من القلق، لأن عليهم أن ينتظروا إلى صباح جديد يتمنونه مطيرًا جدًا.

البيت ظل واقفاً على حاله، غير أنه دخل في حالة من الصمت منذ ذلك اليوم الذي خرج منه فتىً أسمر، ومشى يوزع الابتسامات المغوية على النوافذ والشرفات؛ حتى وصل إلى نهاية الدرب الجديد.

إنه - في الحقيقة - مجرد منعطف يميل بشارع بسادة؛ فسمّاه الناس هكذا.. الدرب الجديد.

والمنعطف - نفسه - يميل إلى اليمين قليلاً قبل أن يمر الفتى بدكان الأوسطى ناشد الذي خرج بمجرد أن رآه:

- صباح الفل يا علي.

صافحه ونظر في عينيه فوجدهما زائغتيْن، بلا دليل على شيء، فنظر إلى شفتيه فرأى أسنان مارسا عليهما، تماماً كما أخبره الشيطان؛ فقال والدماء تغلي في قلبه المنكسر:

- لم لا تأخذ الاصطباحة معي؟.

مكواة الفحم مشتعلة والكنكة على النار.

ولما دخلا الدكان سعل ناشد سعلتين وفتح الدرج فأخرج المقص الكبير، ووضعه على البانك مفتوحًا.

في نهاية الدرب الجديد توجد المعصرة. على الناصية تماماً من ناحية شارع البوستة الذي في نهايته شارع المعاهدة، حيث يلتقي العشاق خلسة بين أشجار الفيكس والكافور، ويجلس الشبان على

fb/mashro3pdf

مقهى البورصة يعاكسون البنات وهن عائدات من المدرسة، وبعد الظهر يجلس مدير بنك ناصر بنظارته السوداء يدخن الشيشة لبضع ساعات. ويرقب سيقان البنات.

المعصرة فعلاً كبيرة وتعمل طول النهار. المعصرة - أيضاً - لها بابان، واحد من ناحية شارع البوستة، وواحد - مغلق دائماً - من ناحية الدرب الجديد.

هذا هو الباب الذي توقّف عنده عليّ ليموت، ولا أحد يمكنه أن يخبرنا إن كان عليّ قد فكر لحظتها في مارسا، أو أنه تمنى أن تشهد من شبّاكها موته المقدس.

على فكرة.. مارسا لم تكن في شبّاكها. الشيطان وحده يعرف أنها كانت تتمرغ في سريرها مثل قطة تحلم برفيف الفراشات، لكن الناس شافوا خط الدماء الواصل بين دكان ناشد والمعصرة يتوقف قليلاً تحت شبّاكها.

البيوت في شوارعنا لا تصمت أبداً، إذ تظل تعيد على أذهاننا حكايات الذين سكنوها يوما. فالناس ما زالت تستيقظ كل صباح فتجد البيت الطيني ما زال واقفاً في منتصف الدرب الجديد، والذين مروا به في الليل أقسموا أنه ليس صامتاً ولا يحزنون، فكأنهم سمعوا فيه ما يشبه رفيف الفراشات.

البيوت - أيضاً - لها صفات وأسماء أصحابها.

كل شيء هنا له حضور من لحم ودم.

فهذا بيت الفخرانية وقور كعادته، يتربع على ناصية الدنيا؛ فيضع ساقاً في الدرب الجديد وأخرى في شارع بسادة.

في أمسيات الربيع ستهب نسائم أشجار الكافور وتطيّر بعضا من ريش العصافيرعلى شباك الجدة. لهذا لا ينسى الناس حكاية الفخراني

fb/mashro3pdf

الكبير الذي تزوج التركية الجميلة، وبنى لها بيتاً من حجر أبيض، وجعل له حوشاً كبيراً أحاطه بسور عال، وزرع حوله أشجاراً تطول في كل يوم، وتضطر الولد البدين أن يشب كثيراً؛ ليرى من شبّاك جدته، ولما طالت الأشجار أكثر من اللازم صعد إلى سطوح بيته، وهناك اكتشف المكان، والتقى الملاك جالساً على سور السطح مدلدلاً رجليه يغني لنادية، ورأى نادية نائمة تغطي وجهها بطرحة سوداء، وتعري فخذيها للشمس، وسبعة كتاكيت تتمشى وتتقافز وتنقر شيئا بينهما؛ فاكتشف أشياء أخري لها طعم الرعشة ولذة الطيران.

قال الولد البدين للملاك الذي غمز له بعينيه وابتسم:

إنظر عجائب الأقدار يا جدع. فأنا ما طلعت السطوح إلا لأشوف المهرة التي تسمع صهيلها جدتي في الفجر، وأرى الكارتة المركونة بجوار السور حتى سكنتها الفئران والسحالي، وكنت أراها من شباك حجرتي، لكن الأشجار صارت أطول منه فلم أعد أرى.

ثم قص على الملاك شيئاً من حكاية الفخراني الكبير وزوجته التركية الجميلة التي لم ينكشف وجهها على رجل غير زوجها:

في الفجر كانا يمشيان بالكارتة لحد القناطر؛ لأن الطبيب نصح التركية الجميلة أن تشم الهواء وتشوف الدنيا حتى يذهب ما بنفسها من سأم. وذات مرة خرجا ولم يرجعا، فيما عادت المهرة بالكارتة خاوية.

ساعات تهب جدتي من نومها، توقظني وأنا نائم بجوارها.

- أسمعت شيئاً يا ولد؟.

الجدة هذه عجيبة والله، تسمع جرس الكارتة وصهيل المهرة وفرقعة كرباج الفخراني الذي لا يفارق يده. عبيطة جدتي يا أيها الملاك.

fb/mashro3pdf

قاطعه الملاك غاضباً:

- هذه حكاية قديمة، ومملة خالص، وجدّتك هذه صارت تخرّف والله. والحقـــيقة أن المهرة التي تتحدث عنها فزّعها نفير مصنع الغزل، فجمحـــت ومالت للنهر، وفي الصباح كان مدرب فريق مصنع الغزل، وعشرة من لاعبيه، يجرون بملابس رياضية حذاء النهر، ولولا أني نبّهتم إليها ما انتبهوا أساساً.

عـــندما أخرجوا الكارتة لم يجدوا بها أحداً. لا بدّ جرفهما التيار. فيما ظلت المهرة مرمية على الشاطئ تأكل منها الكلاب وطيور السما.

فقـــط الكارتة عادت. وبقيت من يومها في هذا الحوش الذي لم يغـــيره الزمن حتي خربت وسكنتها العرس والفئران والسحالي، وأنا - بـــيني وبيـــنك - لم أعد مشغولاً بحكايات جدتك التي لحست عقلك وأوقعتك في الغواية.

فمـــا جئتُ هنا إلا لأخلصَ نادية من خطيئتها الأولى، وها أنت الذي لم تخرج من البيضة ترى فخذيها عاريتين فتعمل بيدك خطية.

أغثني يا الله. فلم أعد قادراً على كل خطايا البشر.

وكـــأن الـــسماء كانت مفتوحة لدعاء الملاك الذي أثقلته خطايا البـــشر، فذات ضحى، انفتح باب بيت الفخرانية، ورأى الناس مهرة بيـــضاء تخرج منه وتعدو في شارع بسادة حتى وصلت آخره، تمهلت قلـــيلاً، نظرت يميناً ثم شمالاً وكأنها لا تعرف ماذا تفعل بعد أن وصلت لهذا الحد، وكان دكان شنودة مفتوحاً وهو جالس كعادته في الشمس، غير أنه صار عجوزاً جداً فرفع يده بالكاد ورسم الصليب على صدره: "هذا عند الناس غير مستطاع، لكن عند الله كل شيء مستطاع".

رأت المُهرة باب الدير مفتوحاً؛ فدخلت، وكان عم "حنّا" البواب مشغولاً بترطيب السعف وتجهيزه ليوم الأحد، فلم ير شيئاً.

fb/mashro3pdf

في الليـــل كـــان صمت غريب يجول في شارع بسادة، حتى أن "شـــنودة" أغلـــق دكانه بدري؛ فاحتار السكارى أين يمضون ليلتهم تلك؟.

أنهت مارسا صلاتها، ثم نـــزلت السلم الحلزوني إلى البدروم، ولما كـــان السلم مظلماً؛ أضاءت شمعة وقالت: "ما دمتم سائرين معي فلا تخافـــوا الظلمـــة" حـــتى رأت نور المطبخ يمتد شاحباً إلى أول السلم، فـــشعرت بالونس، وكان القرابني وزوجته يعدان عشاء السبع بنات، فمالت عليهما وقالت: معنا ضيفة.. فاجعلوها ثمانية.

fb/mashro3pdf

الولي
الذي بدّل جسد البنت بولد، ونسيّ أن يبدل روحها فتسبب في عذابهما معاً

- حمد الله على السلامة يا حاج.

قالها رجب العربجي وهو يرفع يديه في الهواء، ويلمس حافة قبعته القش.

لكنه كان شارداً، فلم يرد، وربما لم يسمع أصلاً، غير أنه وقف قليلاً أمـــام الحصان وسرح. ضوء الحطب المشتعل يلمع في زجاج نظارته، فلم يـــتمكن رجـــب مـــن رؤية وميض خاطف مر بعينيه ونظرة سهتانة إلى الحصان، غير أنه أدرك أن حصانه لم ينته بعد، فقال: خلص بقى يا نجس، ثم لسعه بالكرباج، فقال وهدان: سيبه براحته يا رجب ده حيوان برضو..

ثم ركب الحنطور ولملم عباءته وأشعل سيجارة جديدة.

اسمي سمير.

سمير وليس وهدان.

وهدان هذا اسم أبـــي.

لماذا يتجاهل الناس اسمي وينادونني باسم أبـــي؟.

ألم يكفهم أنه لخبط كل حياتي؟. سجنني في جسد ليس جسدي، جسده هو، فلماذا تسجنونني في اسمه أيضا؟

الـــناس تقول إنني أشبه أبـــي. فولة وانقسمت نصين. الناس لا تنظـــر إلي روحـــي. روحي التي لم يستطع أن يغيرها أحد. أنا نفسي

fb/mashro3pdf

مرتبك، ولا أفهم رغبتي في أن أضع رأسي على كتف رجل، أن أرتعش بمجرد لمسة منه، أو حتى نظرة إلي عيني تطال روحي، قليلون جداً الذين يدركون اغتراب الروح عن أجسادها. روحي التي لا تكف عن مناداتي بصوتها الخفيض كأنه صوت منسي يأتي من زمن بعيد، زمن كنت في رحم أمي بنتا مثل أخواتي البنات، وذات مرة بينما كانت أمي تبكي أمام ضريح الولي، مد يده في رحمها وأبدل جسدي بولد حتى تهدأ روحها، ويطمئن قلب أبي إلى مَن يرث معصرته.

صوت خفيض طالما سمعته يئن في أحلامي، ويخاتلني في لحظات ضعفي، حتى أني في مرة كتبت في ورقة الامتحان: سميرة وهدان السيد، حدث هذا دون قصد مني، مرة وحيدة أفلتت فيها روحي، ورفرفت حول مدرس التاريخ الشاب، حتى أن روحي باغتته وهي تقترب من أنفاسه وتهدأ بين شفتيه فصفعني وأعاد روحي إلى سجنها.

أنا الحاج وهدان.

عليَّ - في الصباح - أن أكون في المعصرة بين عشرين رجلاً ليس بينهم رجل واحد يلمس روحي. أجلس على مكتبي وصورة الحاج وهدان معلقة فوق رأسي تساعدني لكي أخيفهم وتؤكد أنني رجل من ظهر رجل.

لم لا؟ فاليد التي لخبطت حياتي أتقنت عملها وجعلتني أشبه أبي تماما. صورة طبق الأصل منه حتى إنها تخيف الرجال، وتجعلهم لا يتحدثون إلي إلا وهم على بعد خطوات مني وعيونهم في الأرض.

أنا أيضا أخاف اقترابهم حتى لا يتسلل عرق أجسادهم إلى روحي، فتبكي، وترتعش.

يدخلون إليّ بملابس العمل، صدورهم مكشوفة، أياديهم لفرط خشونتها لا تحسني إذا صافحوني.

fb/mashro3pdf

حملنا اللوري يا حاج.. العتالون يريدون عرقهم يا حاج.. المخزن محتاج بضاعة يا حاج.. يلعن أبو الحاج.. لأبو أيامكم السودة. ما حدش حاسس باللي أنا فيه.

نفسي أهرب من كل البلد. أهرب ولا حد يعرف لي طريق جُرَّة. حكاية السفريات دي ما عادتش نافعة. اندس في مولد ولاّ في سينما ولاّ ألِفّ طول الليل على دورات المية في محطة مصر. أضحك للي يسوي واللي ما يسواش، وكلهم ولاد كلب.

ما حدش فاهمني. أنا مش خول يا جماعة. أنا محتاج إنسان يفهمني. واحد يبقى صاحبي.. صاحبي بجد.. يحبني وأحبه.

قال العتال الذي يشبه رشدي أباظة في طوله وعرضه: محتاجينك في المخزن يا حاج.

الحاج لا يقدر يدخل المخزن معكم.. أخاف.. طبعا أخاف.

أنتظر حتى يرّوح كل واحد فيكم إلي بيته وأدخل وحدي. هناك سأذكره ولن يراني أحد، وأنا أبكي وأبوس رجليه أن يسامحني.

علي راشد الذي مات أمام المعصرة. رأيته بعيني ينتفض، وينزف.

من منا الذي خان الآخر يا علي؟.

أنا الذي تركتُك تموتُ بلا شربة ماء؟، أم أنت الذي تركتني من أجل مارسا؟!.

أنت لا تعرف يا علي كم عذبتني. لا تعرف عدد الليالي التي جلست فيها لأنتظرك في المخزن ولم تأت.

بالنسبة لك لم تكن علاقتنا سوى تدريبات أولية على رجولة تُعدُّها من أجل مارسا.

أنت قتلتني أولاً يا علي؛ فلا تستكثر عليّ أن أهمس في أذن الأسطى ناشد، وأدله إلى عضة في شفتي مارسا. الليلة قتلني رجل آخر،

fb/mashro3pdf

أنـــا في الحقيقة قُتلتُ مرات بعدد الذين عشقتهم. أنا رجل يعشق قتله ويعطي بسخاء لقاتليه.

يد مَنْ هذه التي امتدت إلى رحم أمي ولخبطت كل حياتي؟.

أمـــي الـــتي لم تجف مخدتها في ليالي المضاجعات المباركة بأحجبة الشيوخ وأدعيتهم ودماء الذبائح التي أريقت على عتبات الأضرحة، لا بد أنها يد الولي، أو على الأقل أرسل واحدًا من الملائكة الطيبين الذين يعملـــون علـــى توصيل بركاته للمنازل ويودعونها الأرحام. لا بد أنه خجـــل من عطايا أبـــي، أو رقّ لحال أمي بعدما زارته هي الأخرى، وبكت تحت قدميه المقدستين. هو الذي مد يده وأبدل جسدي بالولد الذي يشتهون، ونسي أن يبدل روحي، ألم تعلم أيها الولي أن الله عندما يخلق جسدا؛ يخلق معه روحا له!!.

والله أنـــت ولي أعمى تخدعه الأشياء فلا يرى منها غير صورها، كل ما فعلته، أنك منحت أمي فرصة أن تجلس في سريرها وتغني:

لما قالوا لي ده ولد.. انشدّ ضهري وانسند.

وفي المساء جلس الرجال المباركون يقضمون لحماً على جسدي، فـــيما أبـــي يوزع ابتسامات الفوز بأنه أفلت، لم يعد أبو البنات كما تهمس الجارات كلما رأين عينيه الجميلتين تنظران للأرض.

أنـــت والله لا تستحق قطرة من دم العجل الذي ذبحه أبـــي على عتبتك.

بعـــد ســـنوات سيمـــشي في نفس الشوارع ولد جميل، بعينين رماديـــتين وشعر أصفر وجسد أبيض ممتلئ قليلاً. ستقول اللاتي رأينه يمشي:

هـــذا ولـــد جميل ورث عيني أبيه ومشيته، وأخذ صوت أمه الدافئ.

fb/mashro3pdf

سبحان الله خالق كل شيء.. سبحان مقلب القلوب والأرواح بين أصابعه، هذا ولد سوف يقطع قلوب البنات بجماله، وقلبه لا يحن سوي لولد من سنه. ولد واحد فقط أخرج له روحه، وتركها سخية بين يديه يقلبها كيف يشاء: هذه روحي يا علي، روحي التي نسيتها يد مباركة في جسدي الجميل فحولته إلى ثلاجة.

جسدي ثلاجة جميلة، تحفظ روحاً لا تغني سوى بين يديك، أنا عاشقك وقاتلك. وأنت دفء روحي المنسية في جسدي.

أنا يا علي لست مثل حسونة. أنت لم تفهم، روحي منذورة لك، هكذا اقتضت حكمة ولي النفحات المباركة، وجسدي لا يتذكر ماضيه إلا بين يديك.

أنا عرفت ذلك يوم دخلنا المخزن لأول مرة، قلت لك اسمي سميرة وهدان؛ فضحكت، ولم تصدق مثلهم. أنت أيضا لم تفهم. مثلك مثل مدرس التاريخ الغبي. لكنك بدون قصد لمست جسدي؛ فأيقظت روحي المنسية.

أنت لم تكن سوي حيوان. مثلك مثل حصان يخرج عضوه كلما أحس شيئا من الدفء. لا فرق عندك بيني وبين حسونة، أو بين زينب سليمان ومارسا، كنت أعرف أنك غبي مثلهم لكنك قدري، روح منسية مثل روحي لا يوقظها سوى حيوان مثلك فيه رطوبة الطين ورائحة سعف النخيل.

والله أنا - الآن - محتار فلا أعرف أيهما لمستَ، روحي أم جسدي؟. بل حتى لا أعرف بأيهما تكون بداياتي ونهاياتي!.

تعرف يا علي.. يوم موتك أمطرت لسبع ليال حتى لان بيتك الطيني، وانبعج، وظن الناس أنه واقع لا محالة.

fb/mashro3pdf

كـــنت أعــــرف أنه لن يقع. كنت أعرف. ولا بد أن كل الذين لانـــوا بين يديك كانوا يعرفون. أنا بنفسي رأيت زينب سليمان تحوم حـــول بيتك الطيني وتشم الرائحة التي فاحت منه، وظلت تهيج النساء كلما جاء صباح محمل بالندي.

أذكر أول مرة دخلته. كنا أطفالا، ولم تكن روحي قد استيقظت بعـــد، ولكـــني شممت تلك الرائحة، وعرفت أنها ستعلق بـــي أو أني سأعلق فيها. ثمة ظلام ورطوبة سحيقة، وأكوام المقاطف ما زال سعفها أخضرَ وطريًّا. كانت أمك ترشها بالماء لتحفظ طراوتها وتعدها للتاجر الـــذي يأتي يوم السوق ليحمّل جملين ويمضي. أنت نفسك قلت لي إنه كان يأتي قبيل الفجر، وكانت أمك تشعل الفرن من أجله، وتعد عيشا ساخنا وأكلا.

كـــنت صغيراً ولم تفهم لماذا أمك كلما ودعته في الصباح عادت واندست بجوارك، ثم احتوتك بقوة بين فخذيها ونامت حتي الضحي؟.

لكـــن شيئا نما فيك ممزوجا برطوبة الطين وسعف النخيل وصهد الفـــرن. إنـــه بيت مبارك بالعناق والشهوة، تسكنه أرواح الغرباء فلا تكـــف عـــن الرفـــرفة بين جدرانه. من أجل هذا كنت أعرف أنه لن يسقط، فقط.. بالمطر كان يغتسل، ويبدأ من جديد.

fb/mashro3pdf

العفريت

يزور مارسا في دير السبع بنات، ويمنحها رعشة أخيرة. ونهاية مفتوحة لرجل يكره جسده وتُوحشه روحه، وملاك آخر يعصي الله ويغوي البشر

ربما كان من الضروري أن يحدث ذلك.

ربما يحتاج الأمر - بعد كل هذه السنين - لمؤامرة من نوع خاص ومتقن لأجل تلك المرأة التي وقفت تستحم؛ لتغسل عن جسدها عشرين عاماً من الوجع القديم، وقبل ذلك كانت تسأل نفسها في ليالٍ ذات ريح بارد تسكن زوايا الدير، إن كان بإمكانها أن تطلق عفريتها لمرة أخيرة.

كانت تندهش من دكنة السماء، وهي تعلم أن الوقت ضحاها، ثم تراه في قاع الوادي يلوح لها، ويتردد صوته النحاسي:

حط يا طير المسا على صدر اللي ناسيني
دا لما يسمع غنايا.. يمكن يناديني.

لذلك كان من الضروري أن ينقطع التيار الكهربائي فجأة، ويصمت الكون تماماً، هذه اللحظة التي تستيقظ فيها الحواس فجأة، حيث تتعطل قوانين القبض والبسط بما يتيح لعفريتها أن يزيح سدادته قليلاً، ليتسرب عطرها شيئاً فشيئاً في فضاء الحمام، ثم أنها وقفت عارية

fb/mashro3pdf

لوقت ترتعش، وهي تستنشق عطرها لمرة أخيرة. تماماً كما فاجأها أول مرة وهي على دكة المدرسة تجلس.

كـــان عطراً معتقاً لربع قرن من الزمان، فداهمتها سكرة الحواس، حـــتى أمكنها سماع فقاعات الصابون، وهي تتنفس فوق جلدها لوقت هين، ثم تموت في صمت.

بعـــد كـــل هـــذا العمر أضاءت شمعتها، ربما لمرة أخيرة قبل أن تذوب، كما يذوب دخانها في بخار الماء الساخن، والعطر المعتق. في هذا المساء شافت ظلها على سلم الدير الحلزوني، وكان ضوء قمر يتسلسل من كوة في جدار، ثم شافَتْهُ..

شافته والله.

الولد الذي اقترب من بحيرتها يومًا؛ فلامسها، وغنى لها، وما كان يـــدري أنها تحتاج لأكثر من لمسة؛ لتصطخب، فظل يلمسها حتى إنه رأى نجومها تغمز وتلتمع، فلم يقدر عودُه النحيل على اصطخابها.

الآن، وظلـــه يلمسها على سلم الدير، لا بد سوف تميل مراكبها بعـــنف مباغت يسمح بانسكاب عطرها فوق درجات السلم، وسوف تحس عفريتها يموج في أسفل بطنها؛ فتقول: آه.. وتضطرب، فيضحك عفريتها الذي لم يصدق.. أبعد كل هذه السنين؟.

يمكـــنه الآن أن يطال روحها أيضاً، وسوف تمتلئ بلذة طازجة، وكـــأن كل شيء يكون بالحقيقة قائم، فتحس رطوبة الظلال والوهج، وينتشي جسدها المبلول والماء على زهرته يشف.

ستغمض عينيها قليلاً لتحفظ بقايا رعشتها الأخيرة، وفي الصباح ستهمس في إذن قسيسها:

- يا أبتِ.. صَلِّ لعليّ.

فروحه عالقة في ديرنا هذا.

* * *

fb/mashro3pdf

سامحني يا علي.

سأعترف لك.

سأحكي عن كل الرجال الذين خلعت من أجلهم هدومي واسمي وملامح أبي، وقلت لهم اسمي سميرة وهدان، وسأذكر الوحيد الذي حمل ملامحك واسمك حتى شممتُ فيه رائحتك التي ما زالت عالقة بالمخزن.

أنا في الحقيقة كنت أبحث عنك.

في محطة مصر عرفت عشرات أمثالي. عشرات من الباحثين عن عشق مستحيل. لهم نفس الابتسامات الخاطفة والإيماءات المغوية، ومع ذلك فلن تخطئ الروح المعذبة في صدورهم، هي روحك بالضبط. تكفي نظرة في عين أحدهم فتعرفه، تتبعه أو يتبعك.

– مساء الخير.

– سا النور.

– اسمك إيه؟.

تخاف تقول له سمير. تفكر في أي اسم تقوله. بعض الحذر مطلوب في اللقاءات الأولى. الحقيقة هي دائما لقاءات أولى. لهذا لن تكشف كل أوراقك مرة واحدة. ستقول له: أنا من طنطا.

وسيقول لك شي الله يا بدوي. أحلى ناس.

ستكون هذه الكلمة المناسبة، فرصة يجب أن تستفيد منها، وأيضاً ببعض الحذر. تقول: أنت الأحلى، وتبتسم. وفي عينيك نفس النظرة الشرقانة، ستشعر بقلبك يدق، وريقك ينشف.

الآن هذه لحظة مهمة، فالجملة التالية ستكون أكثر اقتراباً من الهدف، كل واحد منكم ينتظر كلمة واضحة من الآخر، وكل واحد

fb/mashro3pdf

مـــنكم يقرّب من الهدف ببطء. من سينطقها أولاً، على العموم، كلما طالت المناورة كلما كان أفضل.

المـــناورة في حد ذاتها متعة، لحظة ارتجاف قلبك، وتهدج صوتك، وأنـــت تعري روحك واحدة واحدة، تعري روحك أولا قبل أن تعري جـــسدك، هذا هو المهم، وساعتها ستعرف أنت أيضا إذا كان يعري روحـــه أم يعـــري جسده مباشرة، الذين يعرون أجسادهم مرة واحدة كلاب. مجرد كلاب يسيئون لنا.

سيسألك الواحد منهم: إيه نظامك؟.

وستعرف أنه عرى جسده، عندئذ ستفكر في طريقة للانسحاب، ستدعي إنك كنت تشبّه عليه، ستعتذر له وتمشي.

بعـــد كل هذه الرحلات الأسبوعية من بلدك لمصر ستكون أكثر خـــبرة، والـــذي يحدثك الآن شكله ابن ناس، سيقول لك إنه مدرس إنجليزي مع أنه خريج علوم، وأن اسمه أحمد، وإن عينيك حلوة.

سيضحك، وسيفهم من ضحكتك أنكما ستتفاهمان.

- أنت متجوز؟.

- لا..

- قاعد لوحدك؟.

- لا.. معايا الحاجة واخواتي.

- طب وبعدين.. حنفضل ماشيين كده؟.

- ممكن نقعد على قهوة هنا.. نشرب شاي ونتعرف أكتر. نسهر سوا يعني.. ولا أنت ناوي ترجع طنطا الليلة؟.

- لا.. أنا حاجز في لوكاندة هنا.. في كلوت بك.

- دي أماكن بيئة، والبوليس بيكبس عليها.

- بوليس.. ؟!.

fb/mashro3pdf

- طبعا. اسمع. أعرف لوكاندة كويسة في المنيل، وصاحبها مننا وعلينا، يعني ممكن نبات سوا الأسبوع الجاي.. لو اتفاهمنا يعني.

- بصراحة أنا مرتاح لك.

- وأنا كمان.

- يعني مش هتزهق مني وتسيبني.

في المقهى ستلاحظ العيون التي تبص لكما، وهو يمسك بيدك ويضغط عليها ليؤكد لك أنه لن يتركك. ستلحظ أن عينيه تشبهان عيني علي راشد؛ فترتبك، ولا تعرف إن كنت تسحب يدك أو تتركها. سيضغط عليها أكثر. سيقول لك: لا تقلق.. دي قهوتنا. ستترك يدك وأنت تشعر بدماء حارة تصعد إلى وجهك، وخدر لذيذ يدغدغ أعصابك.

ستتنهد وتقول له: صحيح مصر أم الدنيا، وإنك بتفكر تسيب البلد وتعيش في مصر.

- علي الأقل ألاقي ناس تفهمني.. وكمان محدش هنا يعرف حد. حرية يعني.

سيحدثه عن نفسه، عن أبيه وعمله المقرف في المعصرة مع رجال كالبهائم، وتعليمه الذي لم يكمله بعد موت أبيه وأخواته البنات اللاتي يعتبرْنَه رجلهن الوحيد، ويطمعْن فيه وأزواجهن الذين يطالبون ببيع المعصرة وتوزيع الورث بشرع الله، وابنه المعوق الذي لا علاج له إلاّ في بلاد برة، وزوجته التي تشك في سفريات الخميس والجمعة.. فاهمة إني متجوز عليها.

سيضحكان.. ويطلبان حاجة ساقعة.

وفي تلك اللحظة سيفكر في علي راشد من جديد، فيما ينظر للميدان الفسيح بقلق.

* * *

fb/mashro3pdf

أمـــا المـــلاك الذي كان جالساً أمام باب الحمام يبكي، فلم يكن يفكر في شيء غير نادية وأحلامها التي لا يستطيع أن يدخلها في هيئته الشفافة تلك، ولو فعلها لمرة؛ لتمكن منها. فهو جميل وبهي كطاووس. وتلك الملامح التي يطالع بها الولد البدين وجدته ليست سوى شيء من تخيلات البشر.

أنـــا يـــا أيها الولد بلا كثافة أو جسد، وليس بمقدورك أن تلوّن روحـــي كمـــا لـــونت أرواحهم، فلا تتعبني أكثر من ذلك وتشغلني بحكاياتك التي لا تنتهي. أنت رسمتها هكذا، جميلة ومغوية وتذوب من لمسة واحدة.

وحـــتى الكتاكيت التي لا تفهم، تعشق أن تنام بين فخذيها وتنقّر فيها. فلا أنا ولا أنت نقدر أن نمنحها اكتمالا، فالخيالات هكذا تكون بلا جسد، ولا كمال لغير الله.

يـــا رب. افعـــلْ شـــيئًا من أجل ملاكك الطيب. أعيتني مكائد الشيطان، وحيرتني حكمتك، فاغفر لي.

أنـــا لم أكن - وقتها - سوى ملاك صغير يلعب مع العيال، ولم أدرك صـــهيلها كما أدركه الأعمى، وليس لي جسد يرتعش، فكيف أعرف بيقظة الحواس وأنا لم أجربها؟!.

أنـــت يـــا رب لم تـــدخلني في تجربة، وهذه أشياء لا تفهمها الملائكـــة، حـــتى إني تركتها بين فخذي الأعمى، وانشغلت بجمع الديدان.

ديـــدان القز التي سقطت من صندوق سجائر البلمونت، وكادت أقـــدام الأولاد تدهـــسها، وهم يصخبون أمام باب الميضة المغلق. هذه الديـــدان كادت تموت لولا كنت هناك، فمن يحمي مخلوقاتك الصغيرة من الهلاك غير ملاك صغير؟.

fb/mashro3pdf

أمـــا الآن وقد أصبحتُ شابًّا يافعًا، فامنحْ لي جسدًا حتى أسكن أحلامهـــا فـــلا أتركها حتى ترتوي، لأخلصها من خطيئتها الأولى، أو أني - وعزَّتِك وجلالِك - لأُغْوِيَنّهم أجمعين.

fb/mashro3pdf

نوفيلا..
شارع بسادة
رواية

سيّد الوكيل

• روائي من مصر

.. في لحظة كهذه تراخت وقالت: ادْخُلْني يا علي؛ فدخلها غير هيّاب، ولا مقتحم، دخولاً هيناً يليق بابنة العشرين.

ولما يزيد عن عشرين أخرى، ظلت تترقب اكتمال القمر فوق صحن الدير الذي حَبستْ فيه جسدَها؛ ليدخلها في أول الليل، ويغادرها في الصباح بعد أن يشعل شمسها، حتى خافت يوماً ألاّ يعود؛ فأحكمت سدادتها عليه، واحتفظت له بمرة أخيرة تأتيها مفاجئة كالموت فلا يمكنها أن تقاوم.

هل كانت تحتاج لمؤامرة من نوع كوني تبدأ بتوقف دورة القمر؛ لتخرج عفريتها لمرة أخيرة؟ ثم ترقب من فتحة جدارها اكتمال القمر، وتتخيل أنها في ركن سلم بيتها القديم تقبع لعله يعود؟!.

يا للمرأة التي تنسج أسطورتها عبر دخان ونار..

كان عليها أن تغسل عن جسدها عشرين عاماً من الوجع القديم بضوء شمعة ودخان، وظلال جسد وماء، وموسيقى ذات طبول وحشية، وفتى أسمر في قاع الوادي يلوح لها من بعيد.

لوحة الغلاف للفنان أيمن عيسى
esa_am7@hotmail.com

تصميم الغلاف: سامح خلف

ISBN 978-614-01-0174-6

روافد للنشر والتوزيع
www.rwafead.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com - www.nwf.com

fb/mashro3pdf